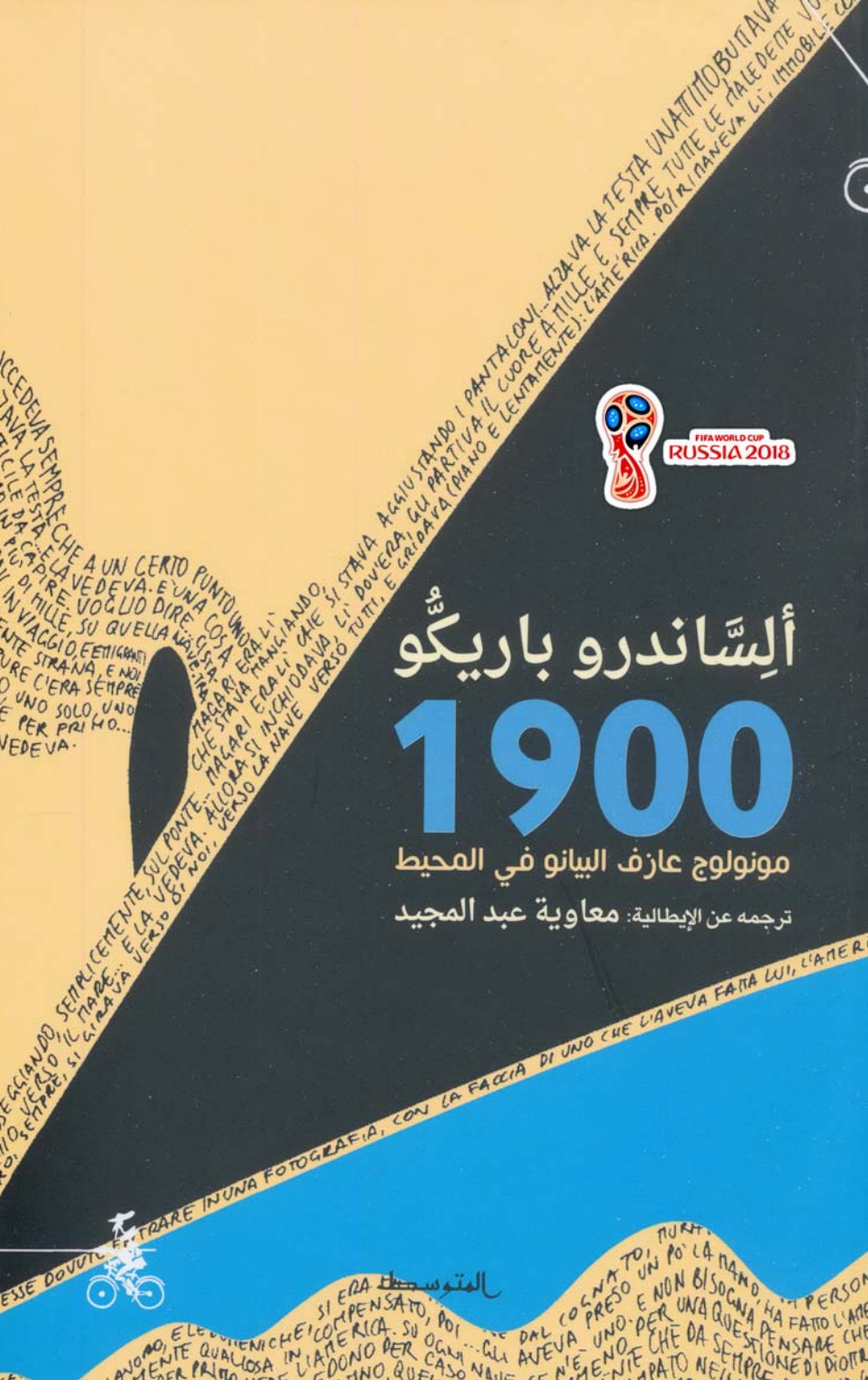

FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018

ألِسَّاندرو باريكُّو

1900

مونولوج عازف البيانو في المحيط

ترجمه عن الإيطالية: **معاوية عبد المجيد**

المتوسط

أِلسَّاندرو باريكُّو

1900

مونولوج عازف البيانو في المحيط

ترجمه عن الإيطالية: معاوية عبد المجيد

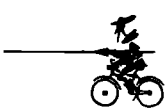

المتوسط

1900

مونولوج عازف البيانو في المحيط

حقوق النسخ والترجمة © ٢٠١٨ منشورات المتوسط - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Novecento. Un monologo *by* "Alessandro Baricco"
Copyright © 1994, Giangiacomo Feltrinelli Editore Milano
Arabic translation copyright © 2018 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: أليسَّاندرو باريكُّو / المترجم: معاوية عبد المجيد
عنوان الكتاب: ١٩٠٠/مونولوج عازف البيانو في المحيط
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
صورة الغلاف: دوتشو بوسكولي / الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-73-1

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

كتبتُ هذا النص للممثّل يوجينيو أليغري، والمخرج غابريلي فاشيس. وكان عرضه الأول في مهرجان آستي في تموز من هذا العام. لا أعلم إن كان هذا كافيًا؛ لأقول إنني كتبتُ نصًّا مسرحيًّا، لكنني أشكّ في ذلك. أمّا الآن، وأنا أراه على شكل كتاب؛ فيبدو لي النص متأرجحًا بين مسرحيّة حقيقيّة، وقصّة تُقرأ بصوتٍ مرتفع. لا أعتقد أنّ هنالك مُسمّىً خاصًّا لنصوصٍ من هذا النوع. لا يهمّ. بالنسبة إليّ، تبدو الحكاية جميلة، وتستحقّ عناء قصّها. ويسعدني أنّ أحدًا ما سيقرؤها.

أ. ب. / سبتمبر ١٩٩٤

إلى باربارا

كان هذا المشهد يتكرّر دائمًا: أحدهم يرفع رأسه، في لحظة معيّنة... ويراها. إنه أمرٌ يصعب شرحه. أعني... كنّا أكثر من ألف مسافر، على متن تلك السفينة، بين أغنياء مُترفين، ومُهاجرين، وأناس غريبي الأطوار، ونحن... ورغم ذلك، كان ثمّة شخصٌ واحد، واحدٌ فقط، يراها... قبل جميع الآخرين. ولعلّه يكون هناك لتناول طعامه، أو للتنزّه فوق الجسر، ببساطة... أو ربمّا يكون هناك يُعدّل بنطاله... فيرفع رأسه للحظة، يُلقي نظرة نحو البحر... فيراها. وهكذا يتسمّر؛ حيث يكون واقفًا، تتسارع نبضات قلبه، ويحدث دائمًا، أقسم لكم، دائمًا، في كلّ مرّة ملعونة، يحدث أن يلتفتَ نحونا، نحو السفينة، نحو الركّاب جميعهم، ويصرخ (بصوت منخفض، يعلو تدريجيًا): "أمريكا". ثمّ يبقى هناك، بلا حراك، كأنّما يلتقط أحدهم له صورة تذكاريّة، بتعبير وجهه الذي يوحي بأنّه هو الذي صنع أمريكا. كأنّه في المساء، بعد العمل، أو في عطلة يوم الأحد، استعان بصهره، عامل البناء، طيّب القلب... في البدء، كان يحضّر توصية ما... ثمّ تفرّغ، إلى أن صنع أمريكا...

هو ذاك الذي يرى أمريكا قبل الآخرين. على متن كلّ سفينة، ثمّة مَنْ يرى أمريكا قبل الآخرين. ولا ينبغي أن نظنّ أنه أمرٌ يحدث عن طريق الصدفة، لا... أو أنّها مسألة قوةٍ بصرية. بل إنه القَدَر. فهذه اللحظة منقوشة على وجه ذاك الرجل منذ الأزل. وحين كان صغيرًا، كان بوسعكَ أن تنظر في عينيه جيدًا، فترى أمريكا معلّقة كلوحة في بؤبؤ عينيه، ومستعدّة للسريان

في أعصابه وعروقه، وما أدراني؟! حتّى تصل إلى دماغه، ثمّ إلى لسانه. ففي تلك الصرخة، "أمريكا"! كانت كلّ أمريكا تقع في عينيه، منذ أن كان صغيرًا.

كانت أمريكا هناك، تنتظر.

هذا ما علّمني إيّاه دانيّ بوودمان ت.د. ليمون ألف وتسعمائة، أعظم عازف بيانو في المحيط. إذا نظرتَ في عيون الناس، تكتشف ما سيرون، لا ما قد رأوا. هكذا كان ألف وتسعمائة يقول: في عيون الناس ما سيرون، لا ما رأوا.

وكم أمريكا رأيتُ في عيونهم... ستّة أعوام على تلك السفينة، خمس رحلات، أو ستّ، كلّ عام، من أوروبا إلى أمريكا، ذهابًا إيابًا، دومًا على سطح المحيط. وحين كنتُ أهبط على اليابسة، أستصعب تركيز التبوّل مباشرةً في الكنيف. أمّا هو؛ فكان ثابتاً، بينما نترنّح جميعنا. فإن كان من السهل أن تنزل من على ظهر السفينة، فمن الصعب جدًا أن تنزل من على ظهر المحيط... حين صعدتُ عليها، كان عمري سبعة عشر عامًا. وكنتُ لا أهتمّ سوى بشيء واحد في الحياة: العزف على البوق. وهكذا، حين صادفتُهم في الميناء، يبحثون عن أشخاص للعمل على سفينة فرجينيان، انضممتُ إلى الطابور. أنا والبوق. في يناير ١٩٢٧. لدينا ما يكفي من الموسيقيين، قال وكيل الشركة. أعرف، أجبتُه، وأخذتُ أعزف. فظلّ واقفًا ينظر إليّ دون أن يحرّك إصبعًا. انتظرني حتّى انتهيتُ من العزف، دون أن ينبس بكلمة. ثمّ سأل:

"ما كانت هذه الموسيقى؟"

"لا أعلم".

لمعتْ عيناه.

"حين لا تعلم ما الذي تعزفه، فهو جاز بالتأكيد".

ثمّ افتعل حركة غريبة بفمه، ربمّا ابتسامة ما. كان لديه سنٌّ ذهبيّ وسط فمه تماماً، كأنه وضعه برسم البيع على واجهة محلّ ما.

"إنهم، في الأعلى، يعشقون هذه الموسيقى".

القصد من "في الأعلى"؛ أي على ظهر السفينة. وذلك النوع من الابتسام يعني أنهم قبلوني.

كنا نعزف ثلاث مرّات، أو أربع، في اليوم. للأغنياء من الطبقة العليا أوّلًا، ثمّ لركّاب الطبقة الثانية، وفي بعض الأحيان، كنا نذهب لدى المهاجرين البؤساء، ونعزف لهم، دون ارتداء الزيّ الموحّد، كيفما اتّفق، وكانوا يشاركوننا العزف أحياناً. كنا نعزف؛ لأنّ المحيط شاسع، ومخيف، كنا نعزف؛ كي لا يشعر الناس بمرور الوقت، وكي ينسوا أين كانوا، ومَن يكونون. كنا نعزف؛ ليرقصوا، فإذا رقصتَ، لا تموت، تشعر بأنك إله. كنا نعزف ريجتايم؛ لأنها الموسيقى التي يرقص على إيقاعها الله، حين لا يراه أحد. يرقص الله عليها، إذا كان زنجيًا.

(يخرج الممثّل من المشهد. تنطلق موسيقى ديكسي، توحي بالبهجة، والحمق تحديدًا. يدخل الممثّل ثانية مرتديًا زيّ عازف جاز على متن السفينة، في غاية الأناقة. ومن الآن فصاعداً، يتصرّف كأنّ الفرقة الموسيقية على خشبة المسرح حقًا.)

ليديز ان جنتلمان، سيّداتي وسادتي... أهلاً وسهلاً بكم، على متن هذه السفينة، على متن هذه المدينة العائمة التي تشبه - قلبًا وقالبًا - سفينة

التايتانك. لا تقلقوا، عودوا إلى مقاعدكم، أرى هناك سيدًا يرتعش، أراه جيدًا، أهلاً وسهلاً بكم، على ظهر المحيط. بالمناسبة، ماذا تفعلون هنا؟ رهان. هربتُم من الدائنين الذين يتبعونكم خطوة بخطوة. وصلتُم متأخّرين ثلاثين عامًا عن سباق البحث عن الذهب. كنتُم تريدون رؤية السفينة، ولم تدركوا أنها انطلقت. خرجتُم للحظة؛ كي تشتروا السجائر، وفي تلك اللحظة، هُرعت زوجتكم إلى الشرطة، وهي تقول: كم كان رجلا طيبًا وطبيعيًا! لم يحصل أن تشاجرنا خلال ثلاثين عامًا، قضيناها معًا... ماذا تفعلون هنا إذنْ؛ على بُعد ثلاثمائة ميل من أيّ يابسة لعينة، على بُعد دقيقتين من نوبة التقيّؤ التالية؟! عذرًا، يا سيدتي، كنتُ أمزح، ابقي مطمئنّة، فهذه السفينة تسير بانسياب - ككرة البلياردو - على سطح المحيط. تك! ستّة أيام، وساعتين وستّة وأربعين دقيقة، ثمّ طق! في الهدف، نيويووووووورك!

(الفرقة في الصفّ الأوّل)

ما من داعٍ لأخبركم عن فرادة هذه السفينة، وخروجها عن المألوف، بكلّ ما تعنيه الكلمة. يقودها القبطان سميث، وهو من أبرز المصابين برهاب الاحتجاز (لعلّكم رأيتُموه كيف يعيش في قارب إنقاذ). ويعمل - تحت خدمتكم - طاقمٌ، لا يُعلى عليه من المتخصّصين البارعين: الربّان باول سيزنسكي، أسقف بولونيّ سابق، مرهفٌ الحسّ، يكاد لا يلمس الألم حتّى ينجلي، كأنه لم يكن، وأعمى لسوء الحظّ... بيل يونغ، المسؤول عن الاتّصالات الملاحية، لاعب شطرنج خارق، أعسر وألكن... طبيب السفينة، الدكتور كلاوزرمانسبيتزفيغينسدورفينتاغ، إن كُتب عليكم أن تنادوه لطارئ ما، حلّت عليكم اللعنة... كما نفخر بالمسيو باردان الطبّاخ، الآتي من باريس مباشرة؛ حيث سرعان ما عاد إلى هناك بعد أن تحقّق شخصيًا من الحالة الغريبة التي تمتاز بها هذه السفينة: لا يوجد مطابخ هنا. ما

قد لاحظه - أيضًا - السيد كاميمبرت، كابينة ١٢، والذي اشتكى اليوم؛ لأنه وجد المغسلة مليئة بالمايونيز. يا للغرابة؛ إذ جرت العادة أن نستخدم المغاسل لحفظ اللحوم المقدّدة، نظرًا إلى عدم وجود المطابخ، ما يعني عدم وجود طبّاخ محترف، وهو مسيو باردان طبعاً، الذي عاد لتوّه إلى باريس، التي جاء منها مباشرة آملاً أن يجد المطابخ هنا في الأعلى، ولكنْ - لنقل الحقيقة - لا وجود للمطابخ هنا، وهذا بفضل الغفلة الطريفة التي يتّصف بها مصمّم السفينة، المهندس العظيم كاميلّيري، المشهور بفقدانه للشهية على مستوى العالم، والذي أرجوكم أن تحيّوه بأقصى ما استطعتُم من التصفيييييييق...

(الفرقة في الصفّ الأوّل)

صدّقوني، لن تجدوا سفينة كهذه:

وربّما، إن بحثتُم لسنوات، قد تجدون قبطانًا مصابًا برهاب الاحتجاز، وربّانًا أعمى، ومسؤول اتّصالات ألكن، وطبيبًا من المستحيل لفظ اسمه؛ كلهم جميعًا على متن سفينة واحدة، ولا تحتوي على مطابخ أيضًا. ولكنّ ما لن تجدوه ثانية، بوسعكم أن تراهنوا على ذلك، هو أن تستريح مؤخّراتكم على أريكة إسفنجية بسماكة عشرة سنتمترات ومئات الأمتار من المياه، في عرض المحيط، لتروا بأمّ أعينكم حدوث المعجزة، التي ستبثّ العجب في آذانكم، والإيقاع في أقدامكم؛ ليبقى في قلوبكم أداءُ الفرقة الموسيقية المميّزة والفريدة والعظيمة: أتلانتك جاز باااااااند.

(الفرقة في الصفّ الأوّل. الممثّل يقدّم العازفين واحدًا

واحدًا. وبعد كل اسم، يؤدّي العازف ارتجالًا منفردًا لدقائق قليلة).

على الكلارينيت، سام "سليبي" واشنطن!

على البانجو، أوسكار ديلاغويرا!

على الترومبيت، تيم طوني!

على البوق، جيم جيم "بيرث" غالاب!

على الغيتار، صمويل هوكينز!

وأخيراً، على البيانو... دانيّ بوودمان ت.د. ليمون ألف وتسعمائة، العازف الأعظم على الإطلاق!

(تنقطع الموسيقى بطريقة فظّة. الممثّل يتخلّى عن نبرة المقدّم، وبينما يتحدّث، ينزع زيّ العازف).

كان الأعظم بالفعل، على الإطلاق. كان يعزف شيئًا مختلفًا كلّيًا عمّا كنا نعزفه... لم يكن لتلك الأنغام وجود، في أي مكان، قبل أن تعزفها أنامله. وحين ينهض عن البيانو، كانت تلك الأنغام تتلاشى... تختفي إلى الأبد... دانيّ بوودمان ت.د. ليمون ألف وتسعمائة. آخر مرة رأيتُه فيها، كان جالسًا على قنبلة. حقًا. كان جالسًا على صندوق ضخم مليء بالديناميت. قصّة طويلة... كان يقول: "لا تحلّ عليكَ اللعنة ما دمتَ تحظى بقصّة حياة فريدة، وأحدِ ما ترويها على مسامعه". وكانت لديه قصّة... قصّة فريدة. كان هو ذاته تلك القصّة. فظيعة، لكنها جميلة، إذا فكّرنا بها مليًا... وفي

ذلك اليوم، وهو جالس على الديناميت، أهداني قصّته؛ لأنني كنتُ صديقه العزيز... وكم خضتُ بعدها من مخاطر، وخسرتُ كلّ ما أملك. ولو علّقتُمُوني - الآن - رأساً على عقب، لما وقع مني شيء؛ لأنني بعتُ كل أغراضي، بما فيها البوق، عدا تلك القصّة... لم أتنازل عنها، وما تزال معي، بكامل نقائها وغرابتها، بقدر ما كانت تلك الأنغام التي تصدر، وسط المحيط، من البيانو السِّحْريّ لدانيّ بوودمان ت.د. ليمون ألف وتسعمائة.

(الممثّل يتّجه خلف الكواليس. تعزف الفرقة موسيقى الختام. وحين تخبو آخر نغمة، يظهر الممثّل ثانية).

عثر عليه بحّار، يُدعى دانيّ بوودمان. وجده ذات صباح حين نزل الركّاب جميعهم في بوسطن. وجده في علبة كرتونية. ربّما كان عمره عشرة أيّام، ليس أكثر. لم يكن يبكي، بل كان مطمئنًا، بعينين مفتوحتين، داخل تلك العلبة. كان أحدهم قد تخلّى عنه في صالة الرقص المخصّصة للطبقة الأولى. على البيانو. إلا أنّ ذلك المولود لم يكن يبدو من المنتمين للطبقة الأولى. جرت العادة أن يفعلها أحد المهاجرين. تلد إحداهنّ خلسة، في مكان ما تحت الجسر، ثمّ يتركنَ المولود هناك. ليس لأنهم أشرار، بل لأنهم كانوا يجابهون واقعًا قاسيًا وفقرًا مدقعًا. كحالهم مع الثياب تقريبًا... كانوا يصعدون بثياب رثّة ورديئة، وأشدّ اتّساخًا من خرقة الأطفال؛ إذ لا يملكون غيرها. ولكنْ؛ بما أنّ أمريكا هي أمريكا، كنتَ تراهم ينزلون بثياب أنيقة، وبعض الرجال يرتدون ربطات الأعناق أيضًا، بينما يلبس أولادهم قمصانًا بيضاء... بالمحصّلة، كانوا يتدبّرون أمورهم، يخيّطون، وينسجون خلال الرحلة، التي تستغرق عشرين يومًا، حتّى تنفد الستائر والأغطية من السفينة كلّها. لا شيء. لقد نسجوا ثيابهم الجيدة احتفاءً بالوصول إلى أمريكا. لهم ولكل أفراد العائلة. لا يسعكَ أن تلومهم أبدًا...

وهكذا، يحدث غالبًا أن يختفي الأطفال، عسى أن يخفّف المهاجرُ عنه عبئًا زائدًا، فالطفل - بالنسبة إليه - فمٌ مفتوحٌ، عليه أن يَشقى لإشباعه، ومشكلةٌ عويصة في مكتب الهجرة. كانوا يتركونهم على متن السفينة، مقابل الستائر والأغطية، بمعنىً ما. وربّما هذا ما حدث لذلك الطفل، ربّما فكّر أهله بأنهم إذا وضعوه على البيانو الكبير، في صالة رقص الطبقة الأولى، فقد يتبنّاه أحد الأغنياء؛ ليجعله سعيدًا طوال حياته. كانت خطّة موفّقة، وأتتْ بنصف النتيجة: لم يصبح ثريًا، ولكنه أمسى عازف بيانو. أفضل عازف بيانو، أقسم لكم.

عمومًا. وجده العجوز بوودمان هناك، بحث عن شيءٍ يُثبت هوية الطفل، لكنه لم يجد سوى عبارة واحدة، على غلاف العلبة، مطبوعة بحبر أزرق: "ت.د. ليمون". وهنالك ما يشبه رسمًا لحبّة ليمون، زرقاء هي أيضًا. كان دانيّ زنجيًا من فيلادلفيا، رجلًا عملاقًا، بشكل عجيب. حمل الطفل بين ذراعيه، وقال له: "مرحبًا، يا ليمون!". وشبّ في باطنه إحساسٌ بأنه أصبح أبًا. وظلّ يدّعي - طوال حياته كلّها - أنّ "ت.د." تعني (Thanks Danny) "شكرًا، يا دانيّ". لم يكن هذا من المنطق بمكان، لكنّ دانيّ كان يؤمن بذلك. لقد تركوا الطفل هناك له وحده. كان متيقّنًا... "شكرًا، يا دانيّ". ذات يوم، أتوه بجريدةٍ، عليها إعلانٌ تجاريّ لرجل مغفّل ذي شاربين ناعمين، كأنه زير نساء لاتينيّ، يحمل حبّة ليمون كبيرة، وقد كُتب بالخطّ العريض: "تانو داماتو ملك الليمون، دانو داماتو ليمون الملوك"، وقد حصل على جائزة، أو إشادة... تانو داماتو... لكنّ العجوز بوودمان لم يفكّر في الأمر: "مَن هذا الرجل المنيوك؟" سأل، وأخذ الجريدة؛ لأنها كانت تحتوي - إضافة إلى إعلان الليمون - نتائج السبق. لم يكن بوودمان مقامرًا، بل كان يعشق أسماء الأحصنة، هذا كلّ ما في الأمر، كان مولعًا بتلك الأسماء، ولا ينفكّ يقول لكَ: "اسمعْ هذا، شاركَ في سباق كلافلاند

البارحة حصانٌ، يُدعى "الباحث عن المشاكل"، أترى؟! هل هذا معقول؟! واسمع اسم هذا: "كان أفضل". يا له من اسم رائع!" بالمحصّلة، كان يعشق أسماء الأحصنة حتّى الولع. أمّا إذا فاز هذا، أو ذاك؛ فليس للخبر أيّ قيمة عنده. فهو كان مولعًا بأسمائهم فقط.

راح يُسمّي الطفل "دانيّ بوودمان"، باسمه، الشيء الوحيد الذي كان يفخر به في حياته. ثمّ أضاف إليه: ت.د. ليمون، تمامًا كالعبارة التي وجدها على غلاف العلبة؛ إذ كان يزعم أنّ الحروف الفردية، وسط الاسم، تصبغه برونقٍ رفيع. "كل المحامين لديهم حروف فردية في أسمائهم" أكّد بورتي بوم، صانع آلات، انتهى به المطاف في السجن، بفضل محامٍ، يُدعى جون ب.ت.ك. ووندر. "إن أصبح محاميًا، قتلتُه"، صرّح العجوز بوودمان، لكنه ترك الحرفين الفرديين في اسم الطفل. وهكذا نتج "دانيّ بوودمان ت.د. ليمون". اسمٌ رائع. كان دانيّ والآخرون، في طابق المحرّكات السفلي، يدرسون الاسم، ويكرّرونه بصوت منخفض، في أثناء الهدوء الذي تلا توقّف المحرّكات، في ميناء بوسطن.

"اسم رائع"، قال بوودمان أخيراً "لكنّ شيئًا ما ينقصه. تنقصه خاتمة عظيمة". حقًا، كان الاسم يحتاج إلى خاتمة عظيمة. "فلنضف إليه: الثلاثاء"، قال سام ستول، النادل "لقد وجدتَهُ يوم الثلاثاء. سَمِّهِ ثلاثاء، إذنْ"!

فكّر دانيّ قليلاً، ثمّ ابتسم. "إنها فكرة جيدة، يا سام. لقد وجدتُهُ في أول يوم لعين من هذا القرن الجديد، أليس كذلك؟! سأسمّيه ألف وتسعمائة." "ألف وتسعمائة؟" "أجل، ألف وتسعمائة." "لكنّ هذا رَقْم!" "كان رَقْمًا. أمّا الآن؛ فهو اسم." دانيّ بوودمان ت.د. ألف وتسعمائة. يا للروعة!

اسمٌ بديعٌ حقًا، يا إلهي! كم سيكون موفقًّا باسمٍ كهذا! انحنى الأصدقاء

على العلبة. نظر إليهم دانيّ بوودمان ت.د. ألف وتسعمائة، وابتسم. تسمّروا مذهولين في أماكنهم؛ إذ لم يكن أحدٌ ليتوقّع أنّ طفلاً صغيرًا جدًا قادرٌ على إخراج هذا القَدْر من البراز.

ظلّ دانيّ بوودمان يعمل بحّارًا لثمانية أعوام وشهرين وأحد عشر يومًا. وذات ليلة، باغت الإعصار عرض المحيط، فتأرجحت السفينة حتّى تزعزعت البكرات، وطارت إحداها؛ لتطعن ظهره. ظلّ يحتضر ثلاثة أيام. وكانت أعضاؤه الداخلية منهارة، ولم يكن من الممكن فعل شيء. وكان ألف وتسعمائة صغيرًا حينها. جلس قرب سرير دانيّ، ولم يتحرّك من هناك؛ إذ كان لديه كومة من الجرائد القديمة. وبقي ثلاثة أيام يقرأ - بصعوبة شاقة - كل نتائج السبق التي وجدها، على مسامع العجوز دانيّ الذي كان يتهيّأ للرحيل. كان ينطق الحروف، كما علّمه دانيّ، بضغط إصبعه على ورقة الجريدة وتركيز أنظاره على الحرف كلّيًا. كان يقرأ، ببطء، لكنه يقرأ. إلى أن مات العجوز دانيّ عند السبق السادس في شيكاغو، الذي فاز به حصانٌ، يُدعى "مياهٌ صالحةٌ للشرب" على بُعد ذراعين من "حساء الخضار"، وخمسة عن "العصارة الزرقاء". الغريب أنه لم يتمالك نفسه أمام هذه الأسماء، فضحك إلى أن لفظ روحه. غطّوه بشراع كبير، وأودعوه في المحيط. وعلى الشراع، كتب القبطان بالطلاء الأحمر: (Thanks Danny) "شكرًا، يا دانيّ".

وهكذا، أصبح ألف وتسعمائة يتيمًا للمرّة الثانية، على حين غرّة. كان عمره ثمانية أعوام، وقد سافر ما بين أوروبا وأمريكا قرابة الخمسين مرّة. كان المحيط بيته. أمّا اليابسة؛ فلم تطأها قدماه يومًا. رآها مرارًا، من الموانئ، طبعًا، لكنه لم ينزل إليها أبدًا. إذ كان دانيّ يخشى أن يسلبوه الصبي، بحجّة الوثائق والتأشيرات وأمور من هذا النوع. وهذا ما جعل ألف وتسعمائة

يبقى على متن السفينة دائمًا، إلى أن تنطلق مرّة أخرى. وللدقّة، لم يكن لألف وتسعمائة وجود بالنسبة إلى العالم: لم يُكتَب اسمه في أيّ مدينة، أو كنيسة، أو مستشفىً، أو سجن، أو فريق بيسبول، في العالم كلّه. لم يكن لديه وطن، ولا شهادة ميلاد، ولا عائلة. كان عمره ثماني سنوات، لكنه لم يكن قد وُلد رسميًّا.

"لا بدّ أن تجد حلاً لهذه المشكلة"، كانوا يقولون لدانيّ أحيانًا "هذا يُعدّ خروجًا عن القانون، قبل كل شيء". لكن دانيّ كان يجيبهم إجابة قاطعة: "فليذهب القانون إلى الجحيم". ومن المستحيل أن تأمل خيرًا من نقاشٍ، يبدأ هكذا.

حين وصلوا إلى ساوثامبتون، في نهاية الرحلة التي مات بها دانيّ العجوز، قرّر القبطان أن يضع حدًا لهذه المهزلة. اتّصل بسلطات الميناء، وأمر نائبه أن يأتي بألف وتسعمائة. لكنهم لم يعثروا عليه. قلبوا السفينة عاليها أسفلها لمدّة يومين. لم يكن له أثر. اختفى. ولم ترقْ هذه النهاية لأحد، فعلى متن الفرجينيان، اعتاد الجميع على ذلك الصبي، ولم يجرؤ أحد على القول، ولكنْ... ليس من الصعب أن يرمي نفسه من سور السفينة... ثمّ إن البحر يفعل ما يشاء، وهكذا... غلب الإحباط أفئدة الجميع حين انطلقوا، بعد اثنين وعشرين يومًا، نحو ريودي جانيرو، دون ألف وتسعمائة، أو دون أن يعرفوا عنه شيئًا... انطلقت السفينة، كالعادة، على وقع الأهازيج الرنّانة والألعاب النارية، لكنْ؛ تلك المرّة كانت مختلفة؛ لأنهم أضاعوا ألف وتسعمائة، وكأنهم فقدوا ابتساماتهم إلى الأبد، واستسلموا لحزن، ينهشهم من الداخل.

بعد الانطلاق بليلتين، تلاشت أضواء الساحل الإيرلندي بالكامل، هُرع العريف باري إلى كابينة القبطان، وأيقظه قائلاً إنه لا بدّ أن يأتي ليرى ماذا يحدث. جدّف القبطان بالآلهة، ثمّ لحق بالعريف.

صالة رقص الطبقة الأولى.

الأضواء مطفأة.

مسافرون، خرجوا من كبائنهم، يرتدون ثياب النوم، واقفين عند المدخل.

ثمّ جاء البحّارة مع ثلاثة زنوج، يعملون في طابق المحرّكات. وانضمّ إليهم ترومان، مسؤول الاتّصالات.

كان الجميع يحدّق فيه صامتين.

ألف وتسعمائة.

جالسًا على كرسيّ البيانو، وقدماه تتأرجحان، ولا تصلان إلى مستوى الأرض.

وكان يعزف، كما يشاء الربّ.

(تنطلق موسيقى بيانو بسيطة وبطيئة ومغوية).

كان يعزف موسيقى غريبة، وبسيطة... وجميلة. لم تكن خدعة، بل كانت يداه تعزفان على مفاتيح ذلك البيانو، ولا أحد يعلم كيف. ولو سمعتُم ما قيل حينها! كان هنالك سيّدة، بلباس النوم الزهري، وبضعة لفافات على شعرها... ثرية جدًا، للتوضيح، زوجة مقاولٍ أمريكي... كانت تذرف دموعًا غزيرة على المستحضر الليلي الذي دهنتْ به وجهها، تنظر إلى الصبي، وتبكي دونما توقّف. حين وجدت القبطان بقربها، وقد غلى من شدّة المفاجأة، غلى حرفيًا، حين وجدتْهُ بقربها، أعني المرأة الغنية، التقطتْ أنفاسها، وأشارت إلى البيانو، وسألتْه:

"ما اسمه؟".

"ألف وتسعمائة".

"لا أقصد اللحن، بل الطفل".

"ألف وتسعمائة".

"على اسم اللحن، إذنْ؟".

كانت تلك المحادثة من النوع الذي لا يحتمله أيّ قبطان بَحْريّ بعد أربع أو خمس جمل. ولاسيّما حين اكتشف لتوّه أنّ طفلاً كان يظنّه ميتًا، لم يكن حيًا وحسب، بل وتعلّم العزف على البيانو - أيضًا - في أثناء اختفائه. ترك الثرية حيث كانت، بدموعها وباقي ما تبقّى، وعبر الصالة بخطوات واثقة: مرتديًا بنطال النوم، وسترة البزّة مفكوكة الأزرار. ولم يتوقّف إلا حين وصل إلى البيانو. كان يودّ أن يقول كثيرًا من الأشياء، في تلك اللحظة، من بينها مثلاً: "أين تعلّمتَ، أيّها اللعين؟!" أو "أين كنتَ مختفيًا، أيّها اللعين؟!". ولكنّه، كأي رجل اعتاد أن يعيش مرتديًا البزّة، انتهى به الأمر أن يفكّر بالبزّة أيضًا. وهكذا قال:

"ألف وتسعمائة، ما تفعله مخالف للنظام حتمًا".

توقّف ألف وتسعمائة عن العزف. كان فتىً صغيرًا بكلمات قليلة وقدرة كبيرة على التعلّم. نظر إلى القبطان بوداعة، وقال له:

"فليذهب النظام إلى الجحيم".

(صوت إعصار)

استيقظ البحر / تكدّر البحر / وانفجرت المياه في وجه السماء / هاجتْ / وابتلعتْ كل شيء / ثمّ قذفت الغيومَ والنجوم إلى ملاعب الريح / واندلعت الزوابع / ثارتْ إلى ما لا نهاية / لا أحد يدري / متى تستريح دوّامة الغضب / ومتى تخبو العواصف / يا أمّاه / لماذا لم تخبريني بدنوّ هذه الآزفة؟ / هَدْهِدِيني؛ كي أنام / كما يُهَدْهِدُني البحر / في حضن هذا الزورق المتأرجح / ما حولي / مياهٌ تنفث الزبد / من أفواه هذا البحر المجنون / أينما قلّبتُ أنظاري / وجدتُ اسوداد الأفق / جدرانٌ سوداء / ودوّاماتٌ قاتمة / خرساء / تترقّب / مرور هذه الهوجة / كي تبتلعني / وأنا لا أريد الغرق، يا أمّاه / بل أريد أن يسكن البحر / لأرى انعكاس وجهكِ على سطحه الصافي / وتنقشع هذه الجدران المظلمة / ويتبدّد هذا الصخب / في قاع المحيط /

أريد أن أرى البحر الذي تعرفين

ذاك البحر

الهادئ

والنور

والأسماك الطائرة

تحلّق فوق سطحه النقيّ.

يا لسوء الحظّ! صادفني الإعصار في أوّل رحلةٍ خضتُها. ولم أفهم كيف انقلبت الطاولة؛ لتعترضني أعنف عاصفة تهبّ على سفينة فرجينيان. في قلب الليل، تكدّر مزاج المحيط فجأة، فقلب الطاولة. كان يبدو أنّ هذا الغضب لا يعرف نهاية، وأنّ واحدًا مثلي - يعزف البوق على متن سفينة

- ليس قادرًا على فعل شيء. بإمكانه أن يكفّ عن العزف ليس إلا كي لا يزيد الطين بلّة. وأن يختبئ في ركنٍ ما. لكنني لم أستطع أن أقاوم. بإمكانكَ أن تترفّع عن التفكير في الأمر، ولكنّ هذه الفكرة تخترق دماغكَ عاجلاً أم آجلاً: "لقد فرّ كالفأر إلى مخبئه". ولم أشأ أن أكون فأرًا، لذا؛ خرجتُ من كابينتي، وقرّرتُ أن أتسكّع هنا وهناك. ولم أكن أعرف أين أذهب، فقد صعدتُ على هذه السفينة قبل أربعة أيّام، وكنتُ أشعر بالفخر إذا عثرتُ على الطريق التي تفضي إلى الكبائن، فتخيّلوا. كانت الأروقة تفصل بين مُدُن عائمة حقًا. ومن البديهي أن أتوه – في أثناء الترنّح - والارتطام بكل الجدران، والانزلاق إلى ممرّاتٍ أجهل نهاياتها. حلّتْ عليّ اللعنة، ولا مناص منها، حتّى ظهر رجلٌ ما، بكامل ثيابه الأنيقة، لا يبدو أنه ضلّ طريقه، بل كان يمشي بهدوء، كأنه لا يشعر بهيجان تلك الأمواج العاتية، كأنه يتنزّه على شاطئ نيس. إنه هو: ألف وتسعمائة.

كان عمره سبعة وعشرين عامًا، لكنه بدا أكبر من ذلك. لم أكن قد عرفتُه جيدًا حينها، عزفتُ معه في تلك الأيّام الأربع الماضية، ومع فرقته، ليس أكثر. لم أكن أعرف حتّى في أيّ كابينة ينام. حدّثني عنه الآخرون طبعًا، كانوا يقولون عنه أشياءً غريبة: إنه لم ينزل من على ظهر هذه السفينة أبدًا. وُلد هنا، وبقي هنا. دومًا. لم تطأ قدماه الأرض يومًا، على مدار سبعة وعشرين عامًا. وقد بدت لي هذه الحكاية في غاية السخف حين سمعتُها هكذا... كانوا يقولون إنه يعزف موسيقى، لا مثيل لها. أمّا أنا؛ فكنتُ أعرف أنّ فريتس هرمان - وهو رجل أبيض، لا يفقه شيئًا، سوى أنّ وجهه جميل، ما يسمح له بقيادة الفرقة - كان يقترب من ألف وتسعمائة، في كل مرّة قبل أن نبدأ العزف، وسط صالة الرقص، ويهمس في أذنه:

"اعزف أنغامًا عادية، يا ألف وتسعمائة، لو سمحتَ".

كان ألف وتسعمائة يُومئ برأسه موافقًا، ثمّ يعزف تلك الأنغام العادية، وهو يركّز النظر أمامه، دون أن يُلقي أيّ نظرة على يديه، ليبدو كأنه في مكان آخر. الآن أعرف أنه كان فعلاً في مكان آخر كلّيًا، لكنني - حينها - كنتُ أجهل ذلك، بل كنتُ أحسبه غريب الأطوار، لا أكثر ولا أقلّ.

في تلك الليلة، في خضمّ الإعصار، بمظهره الأنيق الذي يوحي بأنه سيّدٌ محترم في إجازة، وجدني تائهًا في ممرّ ما، ووجهي ينضح بالتعاسة. نظر إليّ، وابتسم، ثمّ قال لي: "تعال!"

وما الذي قد يفعله عازف بوق، على متن سفينة تشقّ المحيط في قلب الإعصار، إذا ما صادف رجلاً، يقول له: "تعال!"؟ لا شيء سوى أن يطيع الأمر. تبعتُه، كان يمشي بهدوء، بينما أترنّح خلفه، كيفما شاءت الأمواج... عمومًا، وصلنا إلى صالة الرقص، واقتربنا من البيانو، بعد أن ارتميتُ هنا وهناك، في حين كان هو يبدو سائرًا على سكّة حديدية. لم يكن هنالك أحد. ويكاد الظلام يُطبق على الصالة، لولا بعض الأضواء الخافتة على الجوانب. أشار إلى أقدام البيانو، وقال لي:

"انزع الفرامل". لكنّ الأمواج كانت تتقاذف السفينة حقًا، ومن الصعب أن يظلّ المرء ثابتًا على قدميه. لم يكن لنزع الفرامل أيّ معنى.

"إن كنتَ تثقُ فيّ، انزع الفرامل".

هذا الرجل مجنون، قلتُ لنفسي، ونزعتُها.

"والآن، تعال، واجلس هنا" قال لي ألف وتسعمائة حينها.

لم أفهم ما الذي ينوي فعله. كنتُ هناك أسند البيانو؛ إذ أخذ ينزلق كقطعة صابون سوداء... كان الوضع كارثيًا، أقسم بذلك، في أثناء عاصفة

مزلزلة في قلب المحيط، يأتيكَ هذا المجنون؛ ليجلس على كرسيّه خلف قطعة الصابون الضخمة، ويداه ثابتتان على المفاتيح.

"إن لم تصعد الآن، فلن تصعد أبدًا"، قال المجنون ضاحكًا. (يصعد الممثّل على أداة كبيرة، تشبه أرجوحة البهلوان إلى حدّ ما). "حسنًا. فلنخرّب كل شيء. ما الذي لدينا لنخسره؟! ها قد صعدتَ على كرسيّك القميء. والآن؟".

"والآن، لا تخفْ!".

وأخذ يعزف.

(تنطلق موسيقى بيانو منفرد. أنغام رقصة ما، فالس، ناعمة ورقيقة. الأداة الكبيرة تتأرجح، وتجول بالممثّل على خشبة المسرح. وكلّما تقدّم الممثّل في السرد، ابتعد المركب حتّى لامس الكواليس).

لا أُرغم أحدًا على تصديق ما أقول. حتّى أنا، للدقّة، لم أكن لأصدّق ما حدث، إن رواه عليّ أحدهم. لكنّ الحقيقة أنّ ذلك البيانو راح ينزلق، على خشبة صالة الرقص، ونحن خلفه، وألف وتسعمائة؛ إذ يعزف عليه، دون أن يحيد أنظاره عن المفاتيح، كان يبدو في عالم آخر، بينما البيانو يتبع وجهة الأمواج، فيروح، ويجيء، ويدور حول نفسه، أو يمضي مسرعًا نحو واجهة الزجاج، وما إن يكاد يلامسها حتّى يتوقّف فجأة؛ لينزلق ثانية عائدًا إلى الخلف، كان يبدو كأن البحر يُهَدْهِدُه؛ كي ينام، ويُهَدْهِدَنَا معه، دون أن أفهم شيئًا من هذا كلّه، بينما يعزف ألف وتسعمائة بلا هوادة، ولم يكن

يعزف، ببساطة، بل كان يقود البيانو، أتفهمون؟! يقوده بالنقر على مفاتيحه، مسترشدًا طريقه بالأنغام، وما أدراني، كان يقوده حيثما أراد، شيء غريب فعلاً. وحين كنا نتجوّل بين الطاولات، كنا نلامس الشمعدانات والأرائك، فأدركتُ ما الذي نفعله في تلك اللحظة حقًا، كنا نرقص مع المحيط رقصة مجنونة ومتقنة، ثلاثتنا متكاتفين على وقع فالس سكران، فوق بساطٍ من ليلة ذهبية. ما أجملها من رقصة متأجّجة.

(يبدأ الممثّل بالتموّج على أرجاء الخشبة، وهو فوق مركبته، بمزاج معتدل، وسط جنون المحيط، والسفينة ترقص، وإيقاع الفالس يتسارع بتأثيرات صوتية متعدّدة، يتوقّف، يلتفّ، كأنه "يقود" الرقصة العظيمة. وبعد هذه البهلوانيات، يخطئ في مناورة ما، فيتدهور خلف الكواليس. الموسيقى تحاول أن "تتوقّف"، ولكنْ؛ تأخّر الوقت. لا يتسنّى للممثّل إلا الصراخ:

"يا إلهي..."!

يخرج من أحد الجوانب، وهو يتعثّر بشيء ما. تنطلق فرقعة كبيرة، كأن المركب اصطدم بالزجاج، ودمّر طاولة البار والصالة الصغيرة وشيئاً ما أحدث جلبة كبيرة. تمرّ لحظة من السكوت. ثمّ يدخل الممثّل ببطء، من الجانب نفسه الذي خرج منه).

قال ألف وتسعمائة إنّ عليه تحسين أدائه في تلك الرقصة. وأنا قلتُ إنه ليس عليه سوى استخدام المكابح.

انتفض القبطان، بعد أن هدأ الإعصار، وقال (مهتاجًا وصارخًا):

"اللعنة عليكما. الآن ستنزلان إلى طابق المحرّكات، وتبقيان فيه، وإلا قتلتُكما بيدي، وليكن واضحًا أنكما ستدفعان ثمن كل شيء، حتّى آخر قرش، ستعملان طوال حياتكما، قسمًا بسفينة فرجينيان. لم يسبق لي أن التقيتُ مجنونين مثلكما، يعبران المحيط".

في الأسفل، في طابق المحرّكات، توطّدت صداقتنا، أنا وألف وتسعمائة. وباتت صداقة متينة، إلى الأبد. قضينا الوقت كلّه في حساب كم دولارًا علينا أن ندفع مقابل ما حطّمناه. وكلّما ارتفع الثمن ضحكنا أكثر وأكثر. وإن فكّرتُ ثانية في الأمر، يبدو لي أنّ السعادة ليست سوى القليل من لحظاتٍ كتلك. أو شيء ما من هذا القبيل.

في تلك الليلة، سألتُه عن حقيقة حكايته، حكايته وحكاية السفينة، ولادته فيها، وإلى آخره... وإن كان حقًا ما يُشاع أنه لم يغادرها يومًا. فأجابني: "أجل".

"حقًا، حقًا؟".

أجابني بجدّيّة:

"حقًا، حقًا".

لا أدري، ولكنني، في تلك اللحظة، شعرتُ، دون قصد، أو معرفة، شعرتُ برعشة. رعشة خوف.

خوف.

ذات مرّة سألتُه بما يفكّر، وهو يعزف، وإلى ما ينظر، مركّزًا أبصاره إلى الأمام، وأين كان يصل برأسه، بينما تروح يداه وتغدوان على مفاتيح البيانو. فقال لي: "اليوم وجدتُني في بلد جميل جدًا، كان شعر النساء فيه معطّرًا، وثمّة نور يضيء المكان كلّه، المليء بالنمور".

كان يسافر بعيدًا.

وفي كلّ مرّة، كان يصل إلى مكان مختلف: وسط لندن. على قطار يجتاز الأرياف. فوق جبل، تغطّيكَ الثلوج فيه حتّى بطنكَ. في أكبر كنيسة في العالم؛ يحصي أعمدتها، ويتأمّل صلبانها. كان يسافر. من الصعب أن يفهم المرء ما الذي كان ألف وتسعمائة يعرفه عن الكنائس والثلوج والنمور... أعني أنه لم ينزل في حياته عن تلك السفينة. أبدًا. ومع ذلك، كان كما لو رأى تلك الأماكن بأمّ عينه. كان ألف وتسعمائة إذا قلتَ له: "ذات مرّة، كنتُ في باريس" يسألكَ إذا ما مررتَ بحديقة نائية من حدائقها الكثيرة، أو إن أُتيحَتْ لك الفرصة كي تتناول الطعام في مكان معيّن. كان يعرف كلّ شيء. يقول لكَ: "أكثر ما يعجبني هناك هو التنزّه على جسر نوف في انتظار الغروب، وحين تمرّ العوّامات، يروق لي لو توقّفتْ، لأنظر إليها، من الأعلى، وأحيّي ركّابها بيديّ".

"وهل زرتَ باريس، يا ألف وتسعمائة؟".

"لا".

"فماذا تقصد، إذنْ؟".

"أقصد... نعم".

"ماذا تعني بنعم؟".

"باريس".

من الممكن أن تحسبه مجنونًا. لكنّ المسألة ليست بهذه السهولة. فحين يصف لك - بدقّة استثنائية - نوع الرائحة التي تنبعث في بيرثام ستريت، صيفًا، ما إن تتوقّف الأمطار عن الهطول، ليس بوسعكَ أن تقول عنه إنه مجنون، لا لشيء سوى لأنه لم يزر بيرثام ستريت، ولو لمرّة واحدة في حياته. كان قد اشتمّ تلك الرائحة في كلام أحدهم، في عيني أحدهم، حقًا. على طريقته الخاصّة، لكنه اشتمّها حقًا. ربمّا لم ير العالم أبدًا، لكنه قضى سبعة وعشرين عامًا، وهو يرى العالم يصعد على متن تلك السفينة. وكان يتلصّص النظر إلى العالم خلال سبعة وعشرين عامًا، من على تلك السفينة، ويتقمّص روحه.

كان عبقريًا في هذا، بلا شكّ. يُتقن فنّ الإصغاء، والقراءة، ليست قراءة الكُتُب، فتلك يُتقنها الجميع، إنما قراءة البشر. ملامح وجوه الناس تتشرّب كلّ الأماكن والأصوات والروائح التي يصادفونها، يحملون أراضيهم وحكاياتهم على أجبنهم... كلّ شيء مكتوب على أجبنهم. كان يقرأ، بعناية فائقة، ويُصنّف، ويُرتّب، ويُنظّم... في كلّ يوم، يضيف قطعة صغيرة إلى تلك الخريطة الواسعة التي كان يرسمها في خياله عن العالم بأسره، من أقصى الشرق، إلى أقصى الغرب، مرورًا بمُدُن مأهولة، وحانات صاخبة، وأنهار طويلة، ومستنقعات، وطائرات، وأسود كاسرة. يا لها من خريطة عجيبة! كان يسافر فوقها كالله، بينما تنساب أنامله على مفاتيح البيانو، كأنه ينحت إيقاع الريجتايم.

(تنطلق موسيقى ريجتايم حزينة).

استغرق الأمر سنوات حتّى تشجّعتُ يومًا، وطرحتُ عليه السؤال. يا

ألف وتسعمائة، لماذا لا تنزل - بحقّ الله - ولو لمرّة واحدة؟! لماذا لا تذهب؛ لترى العالم بنفسكَ، بعينيكَ؟! لماذا تبقى منعزلًا عنه في هذا السجن العائم؟! بإمكانك أن تتنزّه على جسر نوف؛ لترى تلك العوّامات، بإمكانك أن تفعل ما يطيب لكَ، أن تعزف البيانو بجدارة، سيُعجبون بكَ حتّى الجنون، بإمكانكَ أن تصبح رجلًا ثريًا، وأن تختار أفضل منزل في العالم، أو أن تصمّم أجمل منزل وفقًا لرغبتكَ، على شكل سفينة، إن أردتَ، ما الذي يمنعكَ؟! بإمكانكَ أن تشيد منزلكَ، أينما أردتَ، وسط قطيع من النمور، أو في بيرثام ستريت... يا إلهي، لا يجوز بكَ أن تعيش دومًا هكذا، ذهاب إياب كالحمقى... أنتَ لستَ أحمق، بل إنك عظيم، والعالم على مقربة منكَ، لا يفصلكَ عنه سوى سُلّم ملعون، ليس له قيمة، بضعة درجات متتالية، يا إلهي، يوجد كل شيء بعد تلك الدرجات، كل شيء. لماذا لا تضع حدًا لهذا، وتنزل من هنا، ولو لمرّة واحدة، مرّة واحدة؟!

لماذا لا تنزل، يا ألف وتسعمائة؟!

لماذا؟!

لماذا؟!

في صيف العام ١٩٣١، صعد جيلي رول مورتن على متن سفينة فرجينيان. كان يرتدي زيًا أبيض من رأسه حتّى قدميه، حتّى قبّعته بيضاء، وخاتمًا ماسيًّا، يلتفّ حول إصبعه.

كان مورتن يكتب على إعلانات حفلاته: هذا المساء، أنتم على موعد مع جيلي رول مورتن، مبتكر الجاز. لم يكن ذلك بدافع الغرور، بل كان مقتنعًا بهذا: مبتكر الجاز. كان يعزف البيانو.

وغالبًا ما يتّكئ على وزن الثلاثة أرباع، ويداه خفيفتان كفراشتين. بدأ

مسيرته في العزف في بيوت الدعارة في نيوأورليانز؛ إذ تعلّم - هناك - كيف يلامس مفاتيح البيانو، ويداعب النغمات. فالزبائن يمارسون الجنس، في الطابق الأعلى، ولا يريدون أيّ إزعاج. بل يرغبون في موسيقى ناعمة، تتسلّل خلف الستائر، وفوق السرائر، برفق. وهو كان بارعًا في تلك الموسيقى. كان أفضل مَنْ عزفها حقًا.

ذات يوم، حدّثه أحدهم عن ألف وتسعمائة. لعلّه أخبره بشيء مثل: إنه أعظم عازف على الإطلاق. أعظم مَنْ عزف البيانو في العالم. وربّما يبدو غريبًا، لكنه قابلٌ للتصديق، بأيّ حال. لم يكن قد عزف نغمة واحدة خارج الفرجينيان، ومع ذلك، بات شخصية مشهورة في ذلك الزمان، كأنه أسطورة صغيرة. فكلّما نزل الركّاب عن تلك السفينة، تكلّموا عن أغرب موسيقى سمعوها من عازف بيانو عجيب، كأنّ له أربع أيادٍ، يعزف الكثير من النغمات. وكانت تُشاع عنه القصص الغريبة، وبعضها كان صحيحًا أيضًا، كقصّته مع السيناتور الأمريكي ويلسون الذي قضى الرحلة كلّها في مضارب الطبقة الثالثة؛ لأنّ ألف وتسعمائة يخصّ تلك الطبقة بألحانه العجيبة، حين يملّ من عزف الأنغام العادية على مسامع الطبقة الأولى. لديه بيانو، هناك في الأسفل، يعزف عليه بعد الظهر، أو في وقت متأخّر من الليل. كان يسمع أوّلًا ما يُغنّيه المهاجرون من أغنيات، ويعزف بعضهم على آلة ما، غيتار، أو هارمونيك، أو ما شابه، ويعزفون موسيقىً آتية من بلاد بعيدة... وألف وتسعمائة آذان صاغية. ثمّ يبدأ بالدندنة على مفاتيح البيانو، بينما يغنّي الآخرون، أو يعزفون، شيئًا فشيئًا، حتّى تتحوّل الدندنة إلى ألحان حقيقية، تخرج من البيانو - الأسود، المسنود إلى الحائط - فتبدو ألحانًا من العالم الآخر. كان فيها كل شيء: كل موسيقى الأرض في لحظة واحدة. لا يسع المستمع أمامها إلا إبداء دهشته. بقي السيناتور ويلسون مدهوشًا، وهو يسمع تلك الموسيقى، بكامل أناقته، وسط الطبقة الثالثة

ذات الرائحة الكريهة. زِدْ أنهم أنزلوه بالقوّة حين وصل، فلو كان الأمر بيده؛ لبقي هناك في الأعلى؛ ليسمع ألحان ألف وتسعمائة حتّى آخر يوم ملعون من عمره. حقًا. كتبوا عنه في الجرائد، وكانت حادثة حقيقية فعلًا.

عمومًا. ذهب أحدهم لدى جيلي رول مورتن، وقال له: على تلك السفينة ثمّة مَن يعزف ما يشاء على البيانو. وحين لديه رغبة يعزف الجاز، وحين يشعر بالملل، يعزف ألحانًا، كما لو أنها مُكوَّنة من عشرة جازات في جاز واحد. كان جيلي رول مورتن معروفًا بطباعه الحادّة. قال: "وكيف يعزف جيدًا مَن لا يجرؤ على النزول من على ظهر سفينة قميئة؟!" وقهقه مبتكر الجاز كالمجانين. وكان من الممكن أن تنتهي القصّة هنا، لكنّ ذلك الرجل أجابه حينها: "اضحكْ كما تشاء، واشكر الله على ذلك، فمتى يقرّر ذلك العازف أن ينزل، حتّى تعود أنت للعزف في بيوت الدعارة، أراهنكَ على ذلك"، كفّ جيلي رول عن الضحك، وأخرج من جيبه مسدّسًا صغيرًا، له كعب مُصنّع من صدف البحار. صوّب هدفه على رأس ذلك الرجل، ولم يطلق النار، لكنه قال: "وأين هي تلك السفينة اللعينة؟"

كان مورتن يفكّر في إحياء منازلة. وكانت المنازلات شائعة في تلك الأيام: إذ يتحدّى أحد العازفين عازفًا آخر على البراعة حتّى يفوز أحدهما. أشياء تخصّ الموسيقيين. لا تسيل دماؤهم، لكن النقمة الحقيقية تنبض في قلوبهم. موسيقى وكحول. وقد تستمرّ المنازلة ليلة كاملة. كان جيلي رول يفكّر في سهرة كهذه؛ كي يحطّم أسطورة عازف المحيط، وملحقاتها، إلى الأبد. المشكلة أنّ ألف وتسعمائة - والحقّ يقال - لم يكن يشاء العزف في الموانئ، فكان يعدّها يابسة، وهو لا يريد أن تطأ قدماه اليابسة. إطلاقًا. كان يعزف؛ حيث هو يريد؛ أي في عرض المحيط؛ حيث تغدو الأرض مجرّد أضواء بعيدة، أو ذكريات قديمة، أو أمل قادم. هكذا كانت طباعه.

جدّف جيلي رول مورتن بالآلهة ألف مرّة، ثمّ دفع - من حسابه الخاصّ - ثمن البطاقة، ذهاب إياب، إلى أوروبا. وصعد على متن الفرجينيان، وهو الذي لم تطأ قدماه أي سفينة ما عدا تلك التي تقطع نهر الميسيسيبي. "هذه أغبى حركة، فعلتُها في حياتي" قال، مضيفًا بعض الكلمات النابية، للصحفيين الذين ذهبوا ليودّعوه على الرصيف ١٤ من مرفأ بوسطن. ثمّ انغلق على نفسه في الكابينة، وانتظر حتّى تغدو الأرض مجرّد أضواء بعيدة، أو ذكريات قديمة، أو أمل قادم.

وطبعًا، لم يكن ألف وتسعمائة يهتمّ بأمر المنازلة كثيرًا. ولم يكن يفهمها أساسًا. منازلة؟ ولماذا؟ لكنه كان فضوليًا. أراد أن يسمع كيف يعرّف مبتكر الجاز. لم يقل هذا مزاحًا، بل كان يؤمن بما يقول: أحبَّ أن يلتقي بمبتكر الجاز. لا بدّ أنه فكّر في أن يكتسب منه شيئًا ما، شيئاً جديداً. هكذا كان ألف وتسعمائة. مثل دانيّ العجوز: لم يكن يهتمّ بالسبق، لا يقيم أيّ اعتبار لمَن يفوز، لكنه يهتمّ بالأمور الهامشية.

في الساعة ٢١:٣٧ من اليوم الثاني على انطلاق الرحلة، والسفينة تمخر البحر بسرعة ٢٠ عقدة لبلوغ أوروبا، ظهر جيلي رول مورتن في صالة رقص الطبقة الأولى، بكامل أناقته وزيّه الأسود. كان الجميع يعرف ما الذي ينبغي فعله. كفّ الراقصون عن الرقص، ونحن في الفرقة وضعنا الآلات جانبًا، وسكب النادل كأسًا من الويسكي، والركّاب أصابهم الخَرَس. أخذ جيلي رول كأس الويسكي، واقترب من البيانو، وحدّق في عيني ألف وتسعمائة. لم يقل شيئًا، ولكنّ المقصود من نظرته: "تنحّ جانبًا".

تنحّى ألف وتسعمائة جانبًا.

"أنت مَن ابتكر الجاز، أليس كذلك؟".

"أجل. وأنت الفتى الذي لا يعزف إلا إذا ركن مؤخّرته على سطح المحيط، أليس كذلك؟".

"أجل".

يا له من أسلوب للتعارف! أشعل جيلي رول سيجارة، وأسندها على حافة البيانو، وجلس، وبدأ يعزف الريجتايم. كان يعزف بمهارة، لا ينافسه عليها أحد. يداه تنزلقان، كما تنزلق الثياب الحريرية على أجساد النساء، ويجعل المعزوفة راقصة، كأنها تحتوي على كل بيوت الدعارة الأمريكية، تلك البيوت الراقية، التي كلّ ما فيها أنيق، حتّى زاوية تعليق الثياب. أنهى جيلي رول جولته بنغمات شفّافة حادة جدًا، تقع في نهاية لوحة المفاتيح، كأنها لآلئ تنهمر من شلال صغير، على أرضيّة رخامية. بقيت السيجارة في محلّها، على حافة البيانو، وقد احترق نصفها، لكنّ الرماد ما يزال معلّقًا عليها. كأنّ الرماد لا يسقط خشية أن يُصدر ضجّة ما. حمل جيلي رول السيجارة بين أصابعه، كانت يداه كفراشتين، سبق وقلتُ ذلك، أمسك السيجارة، وظلّ الرماد معلّقًا عليها، لا يريد أن يقع، ربمّا كان في الأمر خدعة ما، لا أعرف. نهض مبتكر الجاز، واقترب من ألف وتسعمائة، وضع السيجارة تحت أنفه، بما فيها من رماد مرتّب، وقال:

"حان دورك، أيّها البحّار".

ابتسم ألف وتسعمائة. كان يستمتع بالعرض. جدّيًا. جلس إلى البيانو، وفعل أغبى ما يمكن فعله. راح يعزف "عودي إلى الخلف، يا بطّة"، أغنية في غاية السخف، تناسب الأطفال، كان قد سمعها من أحد المهاجرين، منذ عدّة سنوات، ولم ينسها، كانت تعجبه حقًا، ولا أعرف ما الذي قد وجد فيها، لكنه يراها مؤثّرة حتّى الجنون. ولم تكن - بالطبع - تعبّر عن براعته.

فكنتُ أنا - أيضًا - قادرًا على عزفها. أضاف إليها بعض التنويعات على المفاتيح الخفيضة، وشيئًا ما على طريقته الخاصّة، لكنها - في النهاية - كانت - وما تزال - أغنية سخيفة. بدت تقاسيم وجه مورتن لطفل، سلبوه هدايا الميلاد. لسع غريمه بنظرة من عينيه اللتين تشبهان عيون الذئاب، وعاد ليجلس إلى البيانو. وعزف مقطوعة "بلوز"، كان بوسعها أن تُبكي عاملًا ألمانيًا، لشدّة حزنها، وبدتْ كأنها القطن الذي كدّ زنوج العالم كلّهم في حصاده؛ ليجمعه مورتن بتلك الألحان. شيء يعذّب الروح. نهض الجميع على أقدامهم، وأنوفهم تسيل، وهم يصفّقون. لكنّ جيلي رول لم ينحن لجمهوره، بل كان واضحًا أن صبره بدأ ينفد من هذه المنازلة.

حان دور ألف وتسعمائة مجدّدًا. وبدأ بداية سيّئة أساسًا؛ لأنه جلس إلى البيانو، وعيناه تغرورقان بالدموع، بسبب مقطوعة البلوز التي تأثّر بها. ولا مشكلة في هذا. أما الطامة الكبرى أنه، وبكل الموسيقى التي كانت تدور في رأسه وبين يديه، ماذا خطر في باله أن يعزف؟ مقطوعة البلوز التي سمعها لتوّه. "كانت جميلة جدًا"، اعترف لي في اليوم التالي؛ لكي يبرّر فعلته، فتخيّلوا. لم يكن لديه أدنى فكرة عمّا تعني المنازلة. عزف تلك المقطوعة. وأكثر من هذا، تحوّلت في رأسه إلى سلسلة من التآلفات البطيئة المتتالية التي تسبّب الملل الفظيع. كان يعزف متقوقعًا على لوحة المفاتيح، ويستمتع بتلك التآلفات التي لم تكن متآلفة أصلًا. وحين انتهى، صفّر الجمهور مستنكرًا.

وفي تلك اللحظة، فقدَ جيلي رول مورتن صبره كلّيًا. لم يجلس إلى البيانو، بل عليه. همس بكلمات، فهمها جميع الحاضرين:

"والآن، اذهب إلى الجحيم، أيّها الغبيّ".

ثمّ بدأ يعزف، لا، لم يكن يعزف، لا تكفي هذه الكلمة لوصف ما فعله

مورتن. كان كالبهلوان، يقفز بخفّة وانسيابية عالية. عزف كلّ ما يمكن عزفه على لوحة مفاتيح مكوّنة من ٨٨ مفتاحًا. بسرعة رهيبة. دون أن يخطئ بنغمة واحدة، دون أن يحرّك عضلة واحدة من وجهه. لم تكن موسيقى، بل بهلوانيات رهيبة، كانت كالسِّحْر في جمالها وجودتها. أعجوبة. أكاد أجزم أنها أعجوبة. ألهب الجمهور. راحوا يهتفون، ويصفّقون. لم يروا مثل هذا من قبل. أحدث ضوضاء، كأننا في رأس السنة. وفي تلك الجلبة، اقترب ألف وتسعمائة مني، بوجه محبط، ومشدوهًا بعض الشيء. نظر إليّ، وقال:

"هذا أحمق كلّيًا...".

لم أردّ عليه. لم يكن من ردّ. انحنى نحوي، وقال لي:

"هات سيجارة، هيّا..."

كنتُ مذهولًا، لدرجة أنني أعطيتُه السيجارة دون أن أعي شيئًا. أقصد أنّ ألف وتسعمائة لم يكن يدخّن. لم يدخّن في حياته أبدًا. أخذ السيجارة، التفّ، وجلس إلى البيانو. وفي الصالة، تطلّب بعض الوقت؛ ليفهموا أنه جلس، وقد يعزف شيئًا ما. قذف بعضهم بنكات ثقيلة، واستخفاف وازدراء وبعض التصفير. الناس هكذا: يتصرّفون بلؤمٍ مع الخاسرين. انتظر ألف وتسعمائة أن يحلّ القليل من الهدوء. ثمّ ألقى بنظرة إلى جيلي رول، الذي وقف أمام البار؛ ليشرب كأسًا من الشمبانيا، ويقول بصوت منخفض:

"لقد جنيتَ على نفسكَ، أيّها العازف الدّعيّ".

أسند ألف وتسعمائة السيجارة على حافة البيانو.

وكانت مُطفأة.

وبدأ يعزف.

(ينطلق صوت مقطوعة، فيها براعة في العزف، لا يُعلى عليها، تعزف بأربع أيدٍ. لا تطول أكثر من دقيقة. وتنتهي بحمولة من التآلفات الحادّة. الممثّل ينتظر أن تنتهي المقطوعة؛ ليستعيد خطابه).

هكذا.

حبس أنفاس جمهوره، وأدخلهم في حالة نشوة تامّة. ظلّت أعينهم تركّز على البيانو، وأفواههم مفتوحة، كأنهم حمقى مغفّلين. وبقوا هكذا، مشدوهين كلّيًّا، حتّى بعد أن انتهت تلك الخاتمة الثقيلة بالمآلفات التي بدت كأن أكثر من مائة يد تشارك في عزفها، وكأن البيانو يكاد ينفجر بين لحظة وأخرى. وخلال ذلك الصمت الرهيب، نهض ألف وتسعمائة، التقط السيجارة، تسلّق فوق لوحة المفاتيح، وقرّب السيجارة من أوتار البيانو.

قدح شررٌ خفيف.

أرجع السيجارة من هناك، فإذا هي تشتعل.

أقسم لكم.

كانت تشتعل حقًا.

كان ألف وتسعمائة يُمسكها بيده، كأنها شمعة صغيرة. لم يكن يدخّن، ولم يكن يعرف كيف يحمل السيجارة بين أصابعه. تقدّم خطوتين حتّى وصل إلى جيلي رول مورتن. وأعطاه السيجارة.

"خذ. دخّنها أنتَ. فأنا لستُ طيّبَ القلب".

وحينها استيقظ الحاضرون من سطوة ذلك السِّحْر. وانطلق الصراخ

والهتاف والتصفيق والجلبة، لم يروا شيئًا كهذا من قبل، جميعهم يصرخون، ويريدون أن يلمسوا ألف وتسعمائة، كأننا في بيت بغاء صاخب، لم يعد أحد يفهم شيئًا. لكنني رأيتُه، هناك في الوسط، جيلي رول مورتن، يدخّن تلك السيجارة اللعينة بعصبيّة، محاولًا أن يبدي انطباعًا ما بوجهه، وحين تعذّر عليه ذلك، لم يعد يعرف أين يحيد أنظاره، وحينها بدأتْ يده الفراشة ترتجف، ترتجف بشدّة، ورأيتُ يده، ولن أنسى ذلك الموقف أبدًا، كانت ترتجف حتّى انفصل رماد السيجارة، ووقع أولًا على بذلته السوداء الأنيقة، ثمّ تزحلقت حتّى فردة حذائه اليمنى، حذاءٌ مَطلي بالصبغ الأسود اللمّاع، وذلك الرماد مثل نفحة دخان أبيض. أذكر جيدًا كيف نظر إلى الحذاء، والصبغ والرماد، فأدرك ما الذي عليه أن يفعل، التفت، ومشى يخطو، ببطء، كي لا يحرّك الرماد عن حذائه. عبر الصالة الكبيرة، واختفى، بحذائه الأسود وعليه نفحة الدخان الأبيض. كان أحدهما قد فاز في المنازلة، ولم يكن هو طبعًا.

قضى جيلي رول مورتن بقية الرحلة منعزلًا في كابينته. وحين وصلنا إلى ساوثامبتون، نزل من الفرجينيان. وفي اليوم التالي، انطلق مجدّداً إلى أمريكا. على متن سفينة أخرى. لم يكن يريد أن يرى ألف وتسعمائة ثانية، ويذكر ما حدث. كان يريد العودة، وكفى.

كان ألف وتسعمائة مستندًا إلى السور، على جسر الطبقة الثالثة. رآه، وهو ينزل بلباسه الأبيض الأنيق وحقائبه الجميلة من الجلد الأبيض. وأذكر أنه قال له فقط:

"فليذهب الجاز إلى الجحيم أيضًا".

ليفربول نيويورك ريودي جانيرو بوسطن كورك لشبونة سانتياغو دل

تشيلي ريودي جانيرو أنتيل نيويورك ليفربول بوسطن ليفربول هامبورغ نيويورك جنوا فلوريدا ريودي جانيرو فلوريدا نيويورك جنوا لشبونة ريودي جانيرو ليفربول ريودي جانيرو ليفربول نيويورك شيربورغ فانكوفر شيربورغ كورك بوسطن ليفربول ريودي جانيرو نيويورك ليفربول سانتياغو دل تشيلي نيويورك ليفربول، المحيط، وهناك، في وسط المحيط تمامًا، تسقط اللوحة.

لطالما أبهرتْني سيرة اللوحات. تبقى معلّقة على الحائط لأعوام، ثمّ تسقط فجأة دون أن يحدث لها شيء، طج! تبقى هناك معلّقة على المسمار، لا أحد يمسّها، ولكنها في لحظة معيّنة، تسقط مثل الحصى. طج! وغالبًا ما يحدث هذا في صمت مطبق، وسكينة تعمّ المكان، لا وجود لذبابة تحوم، أما اللوحة: طج! هكذا، بدون سبب. لماذا تسقط في تلك اللحظة تحديدًا؟ لا أحد يعلم. طج! ما الذي يحدث للمسمار؛ كي يدفعه إلى التفكير بأنه فَقَدَ القدرة على المقاومة؟ هل لديه روح، ذلك المسمار المسكين؟ هل يتّخذ القرارات؟ لعلّه ناقش الأمر مع اللوحة طويلًا، وكانا متردّدين حول قرار الانفصال، يتحدّثان في الأمر كل مساء، منذ سنوات، ثمّ يحدّدان موعدًا، بالساعة والدقيقة والثانية، لسقوط المسمار. وربّما كانا على علم بذلك مسبقًا، ورتّبا شؤونهما على هذا الأساس: اسمعيني، أنا سأنفصل عنكِ بعد سبعة أعوام، هذا يناسبني، حسنًا، فلنحدّد التاريخ: الثالث عشر من مايو، حوالي السادسة، فليكن عند السادسة إلا ربعًا، موافق، ليلة سعيدة، إذنْ. ليلة سعيدة. وبعد سبعة أعوام، في الثالث عشر من أيار، في السادسة إلا ربعًا، طج! يا له من أمر غريب. مثل تلك الأمور التي يُفَضّل ألا تفكّر بها، وإلا جُننتَ. حين تسقط لوحة ما. حين تستيقظ ذات صباح، وتكتشف أنكَ لم تعد تحبّ شريكتكَ. حين تفتح جريدة، وتقرأ اندلاع الحرب. حين ترى قطارًا، وتفكّر بالرحيل. حين تنظر

إلى نفسكَ في المرآة، وتدرك أنكَ تشيخ. حين يرفع ألف وتسعمائة نظره عن الصحن، في قلب المحيط؛ ليقول لي: "حالما نصل إلى نيويورك، بعد ثلاثة أيّام، سأنزل من هذه السفينة"

أُصبتُ بالدهشة.

طح! كما تسقط اللوحة تمامًا.

وإن كان من الصعب أن تسأل اللوحة عن قرارها، فإنّ ألف وتسعمائة كان قادرًا على شرح أسبابه. تركتُه ينعم بالسلام قليلًا، ثمّ بدأتُ أعذّبه، كنتُ أريد أن أعرف لماذا، لابد أن يكون هنالك سبب ما، فالمرء لا يعيش اثنين وثلاثين عامًا على ظهر سفينة؛ كي يقرّر، هكذا فجأة، أن ينزل عنها، كأن شيئًا لم يكن، دون أن يُطلع صديقه العزيز على السبب، دون أن يقول له شيئًا.

"عليّ أن أرى شيئًا ما من هناك، في الأسفل"، قال لي.

"وما هو هذا الشيء؟" لم يكن يريد أن يخبرني به، وقد أتفهّم ذلك، لأنه حين أطلعني عليه في النهاية، كان هذا ما أراد أن يراه:

"البحر".

"البحر؟!".

"البحر".

تخيّلوا. كان بإمكانكم أن تتوقّعوا أي شيء عدا هذا. لم أكن أريد أن أصدّق، كانت كأنها مزحة ثقيلة. بل إنها ترّهة القرن.

"أنت لا ترى إلا البحر منذ اثنين وثلاثين عامًا، يا ألف وتسعمائة".

"من هنا. لكنني أريد أن أراه من هناك. سيكون مختلفًا، إذا ما رأيناه من هناك".

يا إلهي، كأنني أحادث طفلًا صغيرًا.

"حسنًا. انتظر أن تصل إلى الميناء. تقف لبرهة على رصيفه، فترى البحر. سيبدو نفسه".

"كلا، سيكون مختلفًا".

"ومَن قال لك ذلك؟".

قال له ذلك رجل، يُدعى باستر لين باستر. فلاح. من أولئك الذين يعيشون أربعين عامًا في العمل كالبغال، ولا يرون أبعد من الحقل الذي يفلحونه، وربّما المدينة المجاورة، مرّة، أو اثنتين، التي تبعد عنهم زهاء ميل، أو أقلّ، في أيام الاحتفال. سوى أن الجفاف سلب منه كلّ شيء، وزوجته هربتْ مع واعظٍ، يعلم الله بما يعظ، ومات ولداه، بسبب الحمّى. رجل محظوظ بالمحصّلة. وضّب أغراضه ذات يوم، واجتاز إنكلترا من شمالها إلى جنوبها سيرًا على الأقدام؛ كي يصل إلى لندن. لكنه - ونظرًا إلى جهله التامّ بالطُّرُق - بدل أن يصل إلى لندن، انتهى به المطاف في بلدة نائية؛ حيث - بعد منعطفين وهضبة صغيرة - يظهر البحر أمامكَ فجأة. لم يكن قد رآه من قبل، فتسمّر قبالته مدهوشًا. لقد أنقذه البحر، على حدّ زعمه. كان يقول: "البحر يبدو كصرخة عظيمة، يصرخ، ويصرخ قائلًا: "أيّها الحمقى، الحياة شيء كبير جدًا، هل تفهمون ذلك أم لا؟ الحياة شيء كبير". لين باستر، لم يكن قد فكّر بهذا الأمر من قبل. أبدًا أبدًا. كأنه شهد ثورة، تندلع في رأسه.

وربّما لم يكن ألف وتسعمائة قد فكّر به مطلقًا. ربّما كان يشكّ فيه،

ولكنْ؛ لم يحدث أن صرخ أحدهم في أذنه بتلك الحقيقة. وهكذا إلى أن كرّرها باستر ألف مرّة على مسامعه حتّى قرّر أن يجرّبها بنفسه. حين شرح لي تلك النظرية، صار يشبه عالِمًا، يشرح آلية المحرّك الانفجاري: نظرية علمية بحت.

"بوسعي أن أبقى هنا ما حييتُ، لكن البحر لن يقول لي شيئًا. سأنزل الآن، وأعيش على الأرض لسنوات؛ لأصبح رجلًا طبيعيًا، ثمّ أغادر ذات يوم، وأصل إلى ساحل ما، أرفع أبصاري، وأنظر إلى البحر؛ لأسمعه يصرخ".

نظرية علمية. كانت تبدو لي أسخف نظرية، يشهدها القرن، وكان بوسعي أن أبوح له بذلك، لكنني لم أشأ. لم يكن الأمر بهذه البساطة. لأنني كنتُ أكنّ له الخير، وأريده أن ينزل من السفينة يومًا ما؛ ليعزف أمام الناس على الأرض، ويتزوّج امرأة لطيفة، ويُرزق بأولاد، ويشعر بما يشعر به الإنسان في الحياة الجميلة، بغضّ النظر، إن كانت كما وصفها الفلاح، ولكنْ؛ لا بأس بها، إن حالفكَ الحظّ قليلًا، وتمتّعتَ بإرادة قوية. بالمحصّلة، كانت نظرية البحر تبدو لي في غاية السخف، ولكنْ؛ إن نجحتْ في إنزال ألف وتسعمائة من هناك، فلا يسعني إلا أن أكون سعيدًا. وهكذا فكّرتُ أن أسكتَ، بل قلتُ له إن نظريّته صحيحة بالمطلق. وكنتُ سعيدًا له حقًا. كنتُ سأهديه سترتي، المُصنّعة من جلد الجمل؛ ليبدو رجلًا محترمًا، وهو ينزل ذلك السّلّم. وكان متأثّرًا بعض الشيء.

"ستأتي لزيارتي على الأرض، أليس كذلك؟!".

كنتُ كَمَن ابتلع الحصى، وعلقتْ في حلقه. شعرتُ بالاختناق؛ لأنني أكره لحظات الوداع. لذا؛ رحتُ أضحك قدر المستطاع، وقلتُ إنني - بالطبع - سآتي لزيارته، وكنا سنترك كلبه؛ ليركض في الحقول، وننتظر أن تحضّر زوجته وجبة الديك الرومي، وإلى آخره من هذه الترّهات. وهو كان

يضحك، وأنا أيضًا، لكننا - في الحقيقة - كنا نعلم أنّ كل شيء بيننا يوشك على النهاية، ولم يكن بوسعنا الوقوف أمام ما يجري: دانيّ بوودمان ت.د. ليمون ألف وتسعمائة ينزل عن الفرجينيان، في ميناء نيويورك، أحد أيام فبراير. بعد اثنين وثلاثين عامًا، قضاها على البحر، سينزل إلى الأرض؛ ليرى البحر.

(تنطلق أنغام رقصة قديمة. الممثّل يختفي في الظلام، ثمّ يظهر ثانية بثياب ألف وتسعمائة على رأس سُلّم سفينة. بمعطف شتويّ، وقبّعة، وحقيبة كبيرة. واقفًا في وجه الريح، ينظر إلى الأمام. ينظر إلى نيويورك. ثمّ ينزل أول درجة، فالثانية، فالثالثة. وحينها تتوقّف الموسيقى فجأة، ويتسمّر ألف وتسعمائة. الممثّل ينزع القبّعة، ويلتفتُ إلى الجمهور).

عند الدرجة الثالثة، توقّف فجأة.

"ما به؟ هل داس على البراز؟" قال نيل أوكونّر، الإيرلندي الذي لم يكن يفهم شيئًا، ولكنْ؛ من المستحيل أن يتكدّر مزاجه.

"ربّما نسي شيئًا ما" قلتُ.

"ماذا؟".

"وما أدراني؟...".

"ربّما نسي السبب الذي دعاه إلى النزول".

"لا تتفوّه بالترّهات".

كان واقفًا، قدمٌ على الدرجة الثانية، والأخرى على الثالثة. وبقي هكذا، لوقت، لا ينتهي. ينظر إلى الأمام، كأنه يبحث عن شيء ما. وفي النهاية، فعل شيئًا غريبًا. نزع قبّعته، مدّ يده، وتركها ترتمي. بدت كعصفور متعب، أو بيضة زرقاء، لها جناحان. رفرفت القبّعة في الجوّ حتّى سقطت في البحر. وظلّت تعوم. بالطبع، كان عصفورًا، وليست بيضة. وحين رفعنا أبصارنا إلى السّلّم، رأينا ألف وتسعمائة، بمعطفه؛ أي معطفي، يصعد تلك الدرجات ثانية، وقد أدار ظهره للعالم، وتلوّن وجهه، بابتسامة غريبة. خطوتان، واختفى داخل السفينة.

"أرأيتَ؟ وصل عازف البيانو الجديد"، قال نيل أوكونّر.

"يقال إنه الأعظم على الإطلاق" قلتُ. ولم أعرف إن كنتُ حزينًا أم سعيدًا.

لم يشأ أن يخبرني بما رأى على ذلك السّلّم الملعون. وفي ذلك اليوم، وعلى مدار الرحلتين اللاحقتين، صار ألف وتسعمائة غريب الأطوار نوعًا ما، يتحدّث أقلّ من المعتاد، ويبدو مشغولًا، بشيء، يخصّه. لم نطرح عليه الأسئلة. وهو كان يتظاهر بعدم الاكتراث. كان واضحًا أنه ليس طبيعيًا، ولكننا لم نشأ تعذيبه بالأسئلة. ومرّت بضعة أشهر هكذا، إلى أن دخل ذات يوم إلى كابينتي، وقال لي، ببطء، ولكنْ؛ باسترسال: "شكرًا، للمعطف، كان يروقني جدًا. للأسف، كنتُ سأبدو رجلًا محترمًا، ولكنني - الآن - أشعر بخير، مرّت الغمامة، ولا ينبغي بكَ أن تراني كشخص تعس، لن أكون تعسًا بعد اليوم".

بالنسبة إليّ، لم أكن متأكّدًا حتّى إن كنتُ أراه تعسًا، فيما مضى؛ إذ لم يكن من أولئك الذين قد تشكّ في كونهم تعساء أم سعداء. كان ألف

وتسعمائة، وكفى. لم يكن يخطر في بالكَ أنه قد يستسلم للحظة تعاسة، أو يزدهي بسعادة لا تُوصَف. كان يبدو مجرّدًا من أيّ إحساس. غير قابل للمسّ، لا هو، ولا موسيقاه، أمّا الباقي؛ فليس ذا أهمّيّة.

"لا ينبغي بك أن تراني كشخص تعيس، لن أكون تعيسًا بعد اليوم". تركني مذهولًا بتلك العبارة. كان جدّيًّا حين نطق بها، يبدو أنه يعرف جيدًا أين يمضي. وأين سيصل. كما حين يجلس إلى البيانو، ويشرع بالعزف، يداه لا تعرفان الريبة، والمفاتيح تبدو بانتظار لمساته، كأنها مخصّصة له وحده. كانت أنغامه كأنها تُخلَق في تلك اللحظات، ومن جهة أخرى، كانت مُدوّنة في رأسه منذ الأزل.

في ذلك اليوم، جلس ألف وتسعمائة؛ ليعزف على آلة حياته، بمفاتيحها البيضاء والسوداء، وعزف أجمل موسيقىً، سمعتُها في حياتي، موسيقىً مدهشة وغريبة ومعقّدة. كان يرقص على تلك الموسيقى ما بقي حيًّا، ولن يكون تعسًا أبدًا.

أمّا أنا؛ نزلتُ عن الفرجينيان في الحادي والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٣٣. كنتُ قد صعدتُ عليها منذ ستّة أعوام. ولكنْ؛ بدا لي أنني قضيتُ عمرًا كاملًا. لم أنزل عنها ليوم، أو أسبوع، بل تركتُها إلى الأبد. بتأشيرة الدخول، ومستحقّاتي المادّيّة، وكلّ شيء. كلّ شيء نظامي. طويتُ الصفحة مع المحيط.

ليس لأن نمط تلك الحياة الغريب لم يكن يعجبني، بل كان ناجعًا بما يكفي. سوى أنني لم أعد أتخيّل أنني سأقضي حياتي كلّها هناك. إن كنتَ تعمل كبحّار، فالأمر مختلف: البحر مكانكَ، وبإمكانكَ البقاء هناك حتّى تموت، ولا بأس في هذا. ولكنني عازف بوق... إن عزفتَ البوق، على

البحر، فأنتَ غريب، وستبقى كذلك. عاجلا أم آجلًا، ينبغي أن تعود إلى وطنكَ. وكلّما أسرعتَ، كان أفضل، قلتُ لنفسي.

"كلّما أسرعتُ، كان أفضل"، قلتُ لألف وتسعمائة، ففهم قصدي. كان واضحًا أنه لا يرغب في رؤيتي أنزل تلك السلالم، إلى الأبد، لكنه لم يبحْ بذلك. وكان أفضل. في السهرة الأخيرة، كنا هناك، نعزف للحمقى من ركّاب الطبقة الأولى، وحان دوري في الارتجال المنفرد، ورحتُ أعزف. وبعد عدّة نغمات، سمعتُ البيانو يتبعني، هامسًا، برفق؛ ليعزف معي. ارتجلنا معًا، وأنا عزفتُ قدر استطاعتي، لم أكن لويس أرمسترونغ، لكنني عزفتُ جيدًا بالفعل، وألف وتسعمائة يتبعني أينما رحتُ. تركنا أنغامنا تأخذ وقتها، البوق والبيانو معًا، للمرّة الأخيرة، لتقول ما لا نستطيع أن نقوله بالكلمات. وكان الناس حولنا يواصلون رقصهم، لم ينتبه أحد إلى شيء، ولم يكن بوسع أحد أن يدرك ما الذي كان يحدث؛ لأنهم لا يفهمون هذه الأمور، كانوا يواصلون رقصهم، كأن شيئًا لم يكن. ربمّا قال أحدهم لصديقه: "انظر إلى عازف البوق، يا له من مضحك! لعلّه سكران! أو مجنون! انظر إليه كيف يعزف، وهو يبكي".

وكيف جرت الأمور فيما بعد، بعد أن نزلتُ، فتلك قصّة أخرى. ربمّا تدبّرتُ أمري، لو لم تندلع تلك الحرب اللعينة. جاءت؛ لتزيد الطين بلّة، لم نعد نفهم شيئًا. عليكَ أن تفكّر بذكاء؛ كي تعيش، وأن تحظى بإمكانياتٍ، لا أملكها في الحقيقة. فأنا كنتُ ماهرًا في العزف على البوق. وما فائدة عزف البوق حين تندلع الحرب، وتحدق بكَ من كلّ جانب حتّى تخنقكَ؟!

بأيّ حال، لم أعد أعرف شيئًا عن الفرجينيان، ولا عن ألف وتسعمائة لسنوات. لم أكن قد نسيتُه، بل بقيتُ أذكره دومًا، وكنتُ دائمًا ما أسأل نفسي: "تُرى ما الذي كان سيفعله ألف وتسعمائة لو كان هنا؟! وما الذي

سيقول؟! "فلتذهب الحرب إلى الجحيم"؟ ربمّا"، لم يكن أحدٌ لينطق بها مثله. كانت أحوالي تسوء، لدرجة أن أغمض عينيّ بعض الأحيان، فأعود إلى هناك، إلى الأعلى، في الطبقة الثالثة؛ لأسمع المهاجرين يغنّون الأوبرا، وألف وتسعمائة يعزف موسيقاه العجيبة، بيديه، ووجهه، والمحيط من حوله. كنتُ أعيش على الخيال والذكريات، هذا ما يبقى في حيلتكَ أحيانًا؛ كي تنقذ نفسكَ، ولا شيء آخر. طريقة بائسة، لكنها قد تؤتي أكلها.

بالمحصّلة، انتهت تلك القصّة، أو بدت أنها انتهت. حتّى وصلتْني رسالة في يوم ما، كتبها إليّ نيل أوكونّر، ذاك الإيرلندي الذي يمزح طوال الوقت. لكنه في تلك الرسالة كان جدّيًا. كان يقول إنّ الفرجينيان عادت معطوبة من الحرب؛ إذ استخدموها كمستشفىً متنقّل، وساءت أحوالها حتّى قرّروا تدميرها.

رسا الطاقم المتبقّي في بلايماوث، مَلَؤُوها بالديناميت، وكانوا سيفجّرونها في عرض البحر عاجلًا أم آجلًا؛ كي ينتهوا منها: بووم، وكفى! ثمّ كتب ملاحظة أسفل الرسالة: "هلا أدنتَني مائة دولار؟ أقسم لكَ أنني سأعيدها" وتحتها، يوجد ملاحظة أخرى: "ألف وتسعمائة لم ينزل عن السفينة". هذا فقط: "ألف وتسعمائة لم ينزل".

قلّبتُ الرسالة بين يديّ لعدّة أيّام. ثمّ ركبتُ القطار إلى بلايماوث، واتّجهتُ إلى الميناء بحثًا عن الفرجينيان حتّى وجدتُها. رشوتُ الحَرَس ببعض المال، وصعدتُ إلى السفينة، وتجوّلتُ فيها من قمّتها حتّى قعرها، نزلتُ إلى طابق المحرّكات، وجلستُ على صندوق، يبدو محمّلًا بالديناميت، نزعتُ القبّعة عن رأسي، وضعتُها أرضًا، وبقيتُ هناك صامتًا، لا أعرف ماذا أقول/

... وأنا أنظر إليه بثبات، وهو ينظر إليّ بثبات /

الديناميت تحت مؤخّرته أيضًا، الديناميت في كلّ مكان/

دانيّ بوودمان ت.د. ليمون ألف وتسعمائة/

كأنه يعرف أنني سآتي، كما كان يعرف الأنغام جميعها و.../

لقد هرم وجهه، لكنه ما يزال وسيمًا، لا يبدو عليه الإرهاق/

يداه بيضاوان، سترته معقودة الأزرار، حذاؤه ملمّع/

لم يكن قد نزل/

في الظلام كان يبدو أميرًا/

لم يكن قد نزل، كان يفضّل أن ينفجر مع باقي الأغراض، وسط البحر/

يا لها من نهاية عظيمة: ينظر الجميع، من رصيف الميناء، ومن الساحل، إلى مشهدٍ، يفوق الألعاب النارية روعةً، وداعًا، تُسدل الستارة، دخانٌ ولهب، وموجةٌ عالية في النهاية/

دانيّ بوودمان ت.د. ليمون/

ألف وتسعمائة/

/

/

/

/

/

/

/

/

لم أستطع أن أرى نهاية تلك المدينة الشاسعة.../

النهاية رجاءً، هل لي أن أرى النهاية؟/

والضجّة أيضًا/

على ذلك السّلّم الملعون... بدا كل شيء جميلًا... وأنا كنتُ أبدو، بذلك المعطف، رجلًا محترمًا، وكنتُ متيقّنًا من النزول، ما من مشكلة/

بقبّعتي الزرقاء/

الدرجة الأولى، الدرجة الثانية، الدرجة الثالثة/

الدرجة الأولى، الدرجة الثانية، الدرجة الثالثة/

الدرجة الأولى، الثانية/

لم أخفْ ممّا رأيتُ/

بل ممّا لم أرَ/

أ تفهم هذا، يا أخي؟ لم أخفْ ممّا رأيتُ، بل ممّا لم أرَ... بحثتُ عمّا لا يُرى، ولم أجده. في تلك المدينة المتهالكة، كان يوجد كلّ شيء عدا/

كان يوجد كل شيء/

عدا النهاية. لم أستطع أن أرى النهاية. نهاية العالم/

فكّرْ أنتَ الآن: بيانو. لمفاتيح البيانو بداية ونهاية. تعرف أنّ عددها ٨٨ مفتاحًا، لن يخدعك أحدٌ في هذا. مفاتيح البيانو تنتهي. أنت اللامنتهي، والموسيقى التي تنبع من تلك المفاتيح لا منتهية أيضًا. المفاتيح الثماني والثمانون تنتهي، وأنت لا تنتهي. هذا ما يعجبني. هذا ما يمكن أن أعيش لأجله. ولكنْ؛ لو/

ولكنْ؛ لو نزلتُ ذلك السّلّم، وأمامي/

ولكنْ؛ لو نزلتُ ذلك السّلّم، لانفردتْ أمامي لوحة مفاتيح مُكوّنة من مليون مفتاح/

ملايين المفاتيح، بل المليارات. ليست لها نهاية. هذه هي الحقيقة، لوحة مفاتيح، لا تنتهي أبدًا/

الحياة مثل بيانو، لا تُعدّ مفاتيحه، ولا تُحصى/

وبإمكانك أن تعزف على بيانو كهذا ما أردتَ من ألحان. لكنكَ تجلس على الكرسيّ الخاطئ: فذلك البيانو لا يعزف عليه إلا الله/

هل رأيتَ الطرقات؟/

كان هنالك الآلاف من الطرقات. كيف تستطيعون أن تختاروا طريقًا واحدة، لا غير/

كيف بوسعكم أن تختاروا امرأة واحدة فقط/

وبيتًا واحدًا، وأرضًا واحدة، ومنظرًا واحدًا، تشرفون عليه، وطريقة واحدة للموت/

كلّ ذلك العالم/

كلّ ذلك العالم حولكم، الذي لا أحد يعرف أين ينتهي/

ذلك العالم الشاسع/

ألا تخافون أن تنفجروا إذا ما فكّرتُم، مجرّد تفكير، برحابته؟! فتخيّلوا ما الذي سيحدث لكم، لو عشتُم فيه... /

أنا وُلدتُ على هذه السفينة. وكان العالم يأتي إليّ، أكثر من ألف شخص دفعة واحدة. وكم من الرغبات مرّت عليّ، لكنها أقلّ ممّا قد تحمله سفينة. كنتُ أعزف السعادة، على لوحة مفاتيح محدّدة.

هكذا تعلّمتُ. لكنّ الأرض سفينة كبيرة جدًا على مقاسي. الحياة رحلة طويلة جدًا. إنها امرأة في غاية الجمال. عطر ثاقب جدًّا. موسيقىً، لا أتقن عزفها. اعذروني. لكنني لن أنزل. دعوني أعد إلى الوراء.

أرجوكم/

/

/

/

/

حاول - الآن - أن تفهم، يا أخي. حاول أن تفهم إن استطعتَ/

كلّ ذلك العالم في عينيكَ/

مريعٌ، لكنه رائع/

وجميل جدًا/

الخوف كان يدفعني إلى الخلف/

إلى السفينة مجدّدًا/

إلى السفينة الصغيرة/

لأرى ذلك العالم في عينيّ، كل ليلة، من جديد/

أشباح/

قد يقتلونكَ، إن تركتَهم يفعلون ما يشاؤون /

الرغبة في النزول/

والخوف من النزول/

تصبح مجنونًا هكذا/

مجنون/

كان عليّ أن أفعل شيئًا ما، وفعلتُه/

تخيّلته أولًا/

ثمّ فعلتُه/

كل يوم على مدار سنوات/

اثنا عشر عامًا/

مليارات من اللحظات/

حركة شفّافة وبطيئة جدًا/

أنا الذي لم أكن قادرًا على النزول عن هذه السفينة، نزلتُ عن حياتي؛ كي أنقذ نفسي. درجة وراء درجة. وكل درجة كانت رغبة. كل خطوة كانت رغبة، أقول لها وداعًا.

لستُ مجنونًا، يا أخي. لسنا مجانين حين نجد الطريقة لنجاتنا. نحن ماكرون كالحيوانات الجائعة. لا شأن للجنون. إنها عبقرية. هندسة حسابية. إتقان. كنتُ ألفظ روحي رغبة رغبة. كان بوسعي أن أعيشها كلها، لكنني لم أنجح.

وهكذا حولّتُها إلى سِحْر.

وتركتُها خلفي. عملٌ متقن. هندسة حسابية. سحرتُ كل نساء العالم بالعزف، ليلة كاملة، لامرأة واحدة، جلدها شفّاف، ويداها بلا مجوهرات، وساقاها رفيعان، يتموّج رأسها على أنغام موسيقاي، بلا ابتسامة، دون أن تحيد أنظارها، أبدًا، ليلة كاملة. وحين نهضتْ، لم تكن هي التي خرجتْ من حياتي، بل كل نساء العالم. لم أستطع أن أكون أبًا، لكنني تخيّلتُ أنني أب، ينظر إلى طفلٍ، يحتضر لأيّام، جالسًا بقربه، دون أن أخسر شيئًا من ذلك المشهد الرائع والمريع، أردتُ أن أكون آخر ما يراه الطفل من العالم، وحين رحل، وهو ينظر في عينيّ، لم يكن هو الذي رحل، بل كل الأولاد الذين لم أُرزَق بهم. الأرض التي كانت أرضي، في مكانٍ ما من العالم، تخيّلتُها بالسماع إلى رجل آتٍ من الشمال، يغنّي، وفي غنائه، كنتُ أتخيّل الوديان المطوّقة بالجبال، والنهر يجري ما بينها، تخيّلتُ ثلوج

الشتاء، وذئاب الليل، حين غنّى ذلك الرجل، صارتْ تلك الأرض لي إلى الأبد، أينما كانت. الأصدقاء الذي رغبتُ فيهم، تخيّلتُهم بالعرْف لكَ ومعكَ تلك السهرة، في وجهكَ وعينيكَ، رأيتُهم جميعًا، أولئك الأصدقاء المحبّبين، وحين رحلتَ، رحلوا معكَ. قلتُ وداعًا للأعجوبة حين رأيتُ جبال الثلج العظيمة في بحر الشمال تتداعى تحت قسوة الحرارة، قلتُ وداعًا للمعجزات حين رأيتُ ضحكة الرجال الذين هشّمتْهم الحرب، قلتُ وداعًا للنقمة حين رأيتُهم يملؤون هذه السفينة بالديناميت، قلتُ وداعًا للموسيقى، لموسيقاي، في اليوم الذي نجحتُ فيه بعزف خيالاتي كلها في نغمة واحدة تدوم للحظة واحدة، وقلتُ وداعًا للفرح وسِحْره، حين رأيتُكَ تدخل إلى هنا. هذا ليس جنونًا، يا أخي. إنها هندسة حسابية. عمل منسوج بدقّة. جرّدتُ التعاسة من أسلحتها. انتشلتُ حياتي من مستنقع رغباتي. لو سرتَ على خطاي، لوجدتَ رغباتي واحدة تلو الأخرى، مسحورة، ومتخيّلة، وثابتة هناك إلى الأبد؛ لتشير إلى هذه الرحلة الغريبة التي لم أروِها على أحد سواك/

/

/

(ألف وتسعمائة يبتعد نحو الكواليس).

/

/

/

(يتوقّف. يلتفّ).

ها أنا أرى المشهد، ما إن تصل روحي إلى الأعالي، حتّى يبحثوا عني في اللائحة، ولا يجدوني.

"ما اسمكَ، لو سمحتَ؟".

"ألف وتسعمائة".

"نوسينسكي، نوتاربارتولو، نوفاليس، نوتسا...".

"لقد وُلدتُ على ظهر سفينة".

"عفوًا؟".

"وُلدتُ على ظهر سفينة، ومتُّ فيها أيضًا. لا أعرف إن كان هذا مدوّنًا عندكَ...".

"غرقًا؟".

"لا. انفجارًا. ستّمائة كيلوغرامًا من الديناميت. بووم".

"آه. وهل أنتَ على ما يرام الآن؟".

"لا بأس... سوى أنني فقدتُ ذراعًا...لكنهم طمأنوني...".

"هل فقدتَ ذراعًا؟".

"أجل، في الانفجار، كما تعلم...".

"لابدّ أنّ لدينا زوجًا هناك... أيّ ذراع ينقصكَ؟".

"الأيسر".

"أووه".

"ما الأمر؟"

"أخشى أنّ لدينا ذراعين أيمنين فقط، أتفهمني؟!".

"ذراعان أيمنان؟".

"أجل. في هذه الحال، هل يؤسفكَ أن...؟".

"أن ماذا؟!".

"أقصد أن تأخذ ذراعًا أيمن...".

"ذراعًا أيمن بدل الذراع الأيسر؟!".

"أجل".

"آه... لا بأس... بالمحصّلة، ذراعٌ أيمن أفضل من لا شيء...".

"وهذا ما فكّرت فيه أنا أيضًا. انتظر لحظة؛ كي آتيكَ به".

"أو ربّما أعود بعد بضعة أيّام ريثما يصلكم ذراعٌ أيسر...".

"اسمع، لديّ ذراع أبيض وذراع أسود...".

"لا، لا... أريد لونًا موحّدًا... ليستْ عنصرية ضدّ الزنوج، لكنها مسألة...".

...مسألة حظٍّ عاثر. ستعيش في الجنّة، خالدًا فيها، بذراعين أيمنين. *(بصوتٍ من الأنف)*، والآن، فلنصلّ للصليب! *(يستعدّ لإشارة الصليب، لكنه يتوقّف. ينظر إلى يديه)* لا تعرف أيّما تستخدم. *(يتردّد لحظة، ثمّ يصلّي بإشارة الصليب بيديه الاثنتين)*، ستبدو بمظهر الأحمق، ملايينًا من السنوات، إلى الأبد. *(يكرّر إشارة الصليب بيديه الاثنتين)* جحيم في الجنّة. لا وجود لما يثير الضحك.

(يلتفّ، يذهب نحو الكواليس، يتوقّف قبل خطوة من الخروج، يلتفّ ثانية نحو الجمهور. تلمع عيناه) طبعًا... يا لها من موسيقى!... تعزفها بهاتين اليدين اليمنيين... لو كان هنالك بيانو فقط...

(يستعيد جدّيّته).

إنه ديناميت هذا الذي تحت مؤخّرتكَ، يا أخي. فانهضْ، وارحلْ من هنا. لقد انتهتْ. هذه المرّة، انتهتْ حقًا.

(يخرج).

أليساندرو باريكّو

وُلد عام ١٩٥٨ في مدينة تورينو. وتخرّج في أرفع المعاهد الخاصة بعد أن تتلمذ على أيدي أبرز الأساتذة الإيطاليين، في مجال الفلسفة والموسيقى والأدب.

عمل طويلاً في الصحافة والإذاعة والتلفزيون، وقدّم منجزات مهمّة على صعيد النقد الموسيقيّ. كما شارك في تقديم بعض البرامج والتمثيل والإخراج، في بعض الأفلام السينمائية.

في مطلع التسعينيات من القرن الماضي، برز اسمه كأديب روائيّ بعد أن نشر روايته الأولى "قلاع الغضب" عام ١٩٩١، و"البحر المحيط" عام ١٩٩٣.

عام ١٩٩٤، ألّف مونولوج "ألف وتسعمائة" الذي أخرجه إلى المسرح غابريلي فاشيس، وأدّى الدور الممثل يوجينيو أليغري.

وسرعان ما حصل المونولوج على ثناء الجمهور حتى صدر كتابًا مطبوعًا، وتُرجم إلى لغات عدّة. ما دعا المخرج الإيطالي الشهير جوزيبي تورناتوري إلى نقله إلى فيلم سينمائيّ بعنوان "أسطورة ١٩٠٠ عازف البيانو في المحيط"، ووضع موسيقاه التصويرية المؤلف الإيطالي القدير إينيو موريكوني، وأدى دور البطولة الممثل البريطاني تيم روث.

ولم يتوقف باريكّو عند هذا الحدّ، بل أخذ يكثّف من إنتاجه الأدبي؛

ليحصل على شهرة عالمية، وينال الجوائز الرفيعة على إصداراته القادمة، من بينها "حرير" التي نقلها المخرج الفرنسي فرانسوا جيرار إلى السينما، و"مدينة"، و"بلا دماء"، وعشرات القصص والروايات الأخرى.

يتميّز باريكو بأسلوبه السهل الممتنع، وتحليله العميق للّحظات الفريدة التي يُثبت فيها الإنسان إنسانيته، وذلك ضمن خلطة أدبيّة، تجمع بين السِّحْرية والتصوّف. كما يتّسم بالابتعاد عن الإسهاب والغوص في القضايا اليومية، فتراه يتطرّق إلى مواضيع في غاية الغرابة والعجب، أبطالها نظريّاتٌ فلسفية، أو أساطيرٌ معاصرة، أو أفكارٌ فنيّة، وذلك ليفسح المجال أمام الفنون؛ كي تعبّر عن نفسها - تلك الفنون التي خبرها شخصيًا - كالموسيقى والرسم والمسرح.

يتقصد باريكُّو، وهو الناقد الموسيقيّ والفنيّ، مشهدَ المبارزة الموسيقيّة - محور المونولوج - إذ يجرّد الموسيقى من واقعها اليوميّ، ليضعها تحت مجهر الخيال الأدبيّ بغرض تفسير ضبابيّتها.

صحيفة «ذي غارديان» البريطانية

إنّ الحساسيّة الموسيقيّة، التي يتمتّع بها باريكُّو، واضحةُ المعالم في هذا النصّ. بإمكان القارئ أن يلحظ كيف تتصاعد النغمات، من آلة البيانو لتلك الشخصيّة الأسطوريّة، من خلال كثافة الصورة وانسيابيّة السرد.

صحيفة «لوفيغارو» الفرنسية

«مونولوج ١٩٠٠» حكاية تعيدنا إلى حقبة الجاز المتألقة، وتتكوّن من ذكريات الراوي الذي عرف ذلك البطل الغرائبيّ، العازف الذي يطفح قلبه بالإنسانيّة ويستغرب من الإنسان. أسطورةٌ حديثةٌ، تمتزج فيها الكوميديا والتراجيديا في آن واحد.

صحيفة «كوريري ديلا سيرا» الإيطالية

أِلسَّاندرو باريكُّو: الكاتب الأكثر شعبية في إيطاليا بلا منازع، هو أيضاً مخرج ومؤدي. تُرجمت رواياته إلى عدد كبير من اللغات العالمية، مثل أراضي الزجاج، وحرير، والبحر المحيط، ومدينة، وبلا دماء. وتم تحويل مونولوجه المسرحي ١٩٠٠ إلى فيلم سينمائي حقق نجاحاً وشهرة كبيرتين، الفيلم هو أسطورة ١٩٠٠.

(المزيد عن المؤلف داخل الكتاب)

منشورات المتوسط

لقد أبهرتني هذه الشحنة المتأججة من الاستعارة، في خروجها عن المألوف. جاءت شخصيّة «١٩٠٠» كانعكاس صريح لعمق كلّ واحد منّا، فيما تعرضه من اختلال التوازن الذي طرأ على الإنسان الحديث، خلال دخوله القرن العشرين، بين مصير مجهول وتأزّم وجوديّ.

المخرج السينمائي الشهير جوزيبّه تورناتورّه

ألّف باريكّو مونولوج «ألف وتسعمائة» في العام ١٩٩٤، الذي أخرجه للمسرح غابريلّه فاشيس. وسرعان ما حصل المونولوج على ثناء الجمهور حتى صدر كتاباً مطبوعاً وتُرجم إلى لغات عدة. ثم قام المخرج الإيطالي الشهير جوزيبّه تورناتورّه بنقله إلى فيلم سينمائيّ بعنوان «أسطورة ١٩٠٠ / عازف البيانو في المحيط» وأدى دور البطولة الممثل البريطاني تيم روث.

نجح الفيلم نجاحاً هائلاً، وأصبح هذا الكتاب من أكثر الكتب التي ترجمت إلى عدد هائل من اللغات.

وقصة الكتاب هي كما رواها صديق، عازف ترومبيت، على شكل مونولوج، عن دانيّ بوودمان (ت.د. ليمون ألف وتسعمائة) عازف البيانو على متن عابرة المحيطات فيرجينيان. تلك الباخرة التي كانت تتنقل بين أمريكا وأوروبا محملة بأصحاب المليارات وبالمهاجرين في الوقت نفسه. وعلى متنها كلّ مساء، عازف بيانو استثنائي، صاحب تقنيات هائلة في العزف، يعزف هناك، للأغنياء وللفقراء. يقولون إن قصته مجنونة جداً، وإنه ولد على متن الباخرة وإنه لم يطأ الأرض أبداً، ولا أحد يعرف لماذا!

ISBN 978-88-99687-73-1
9 788899 687731
المتوسط